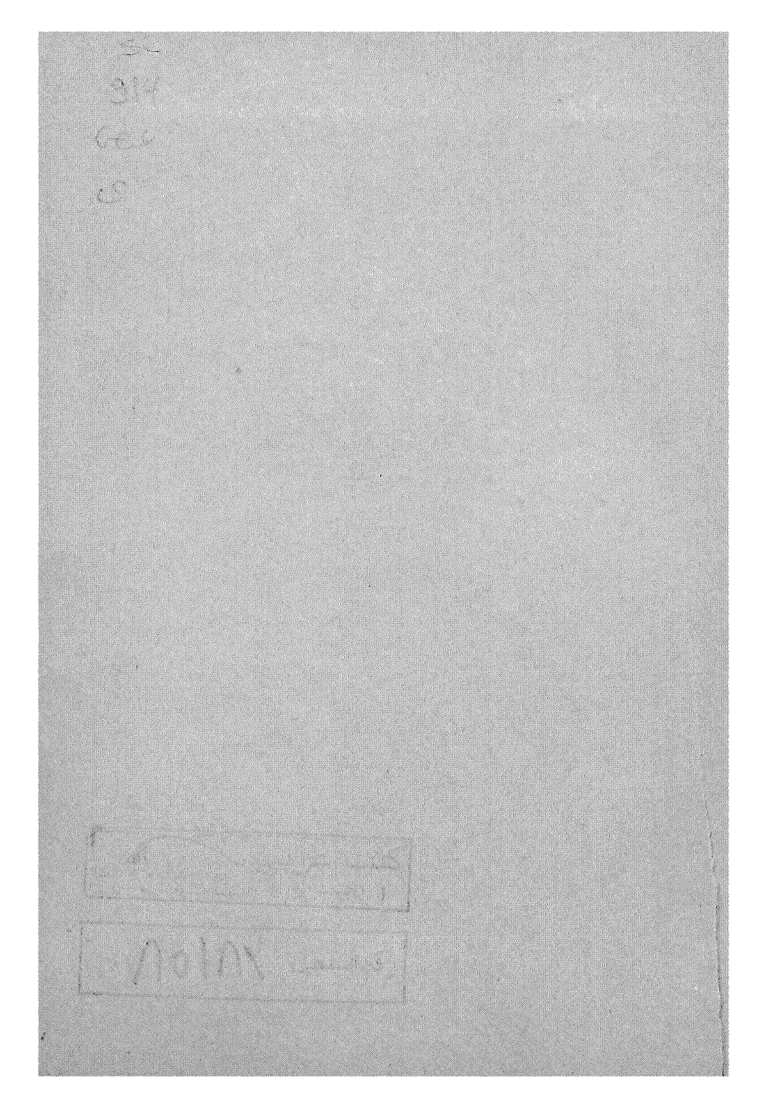


يوم في أوربا





بقلم

أحمد عطية الله

مؤلف لنــدن ، برلين الخ

الناشر

مكتبة الانجلو المصرية

مطبعــة حجازى بالقـاهره

تليفون ٥٥٤٨٠

الطبعة الأولى

أكتوبر سنة ١٩٣٧

كلمة للمؤلف

قد يكون هذا الكتاب فى غير حاجة إلى مقدمة ، لأن الكتب — كما يقال — تقرأ من عناوينها .

بيد أنه قد يلتبس عنوان هذا الكتاب على القارىء فيظن أن وراءه سراً وقصة ، وقد يظنه لونا من ألوان الابتكار التى أخذ بها الناس ، من كُتّاب وغير كتّاب فى بث آرائهم فى هذه الأيام

ولكن الحقيقة غير هذا ؛ إذ ليس وراء هذا العنوان سر مكنون أو قصة خفية ، وليس هو بمحاولة فى ابتكار العناوين الطريفة ، إذ أن عنوان هذا الكتاب هو الكتاب نفسه .

وليس هذا « اليوم » الذى تخيرته مادة لهذا الكتاب من الأيام الممتازة المشهودة بل هو ككل يوم قضيته فى أوربا ، بل إنه على الأصح صورة سريعة لعشرات الأيام ، بل لمعات الأيام التى عرفت فيها أوربا !

إن القارىء ليعجب حين يطوى الصحيفة الأخيرة من هذا الـكتاب ، كيف يجرأ كاتب على تصوير ناحية تافهة من حياته ليس فيها ما يذكر أو يؤثر ؟ !

ولـكن هذه النواحى التافهة فى حياتنـا ، هذه النواحى المنسية المهجورة هى التى نعيش فى ظلها يوما بعـد يوم وعاما بعد عام ، وكل مادونها مهما كان عظيما فاخراً فهو طارىء عليها غريب عن طبيعتنا الإنسانية . .

ا . ع

فهرس

إلى الصديق النبيل ،

الأستاذ الدكتور عبد المنعم رياض بك

أهدى هذا الكتاب

تذكار اخلاص وحب وولاء

المخلص

احمد عطية الله

يوم من الأيام

لم يكن اليوم الأول من شهر أكتوبر الماضى يوماً يمتاز عن غيره من الأيام ، حتى أجعل من أخباره مادة لكتاب مثل هذا .

ولكن وجه العبرة فيه أنه يوم من الأيام ؛ من الأيام التى نعيشها لننساها،وإذا ذكرناها ، فاننا نذكرها كما نذكر كل شىء تافه يمر بنا ، إنه يوم من تلك الأيام التى تصل أمسنا الذاهب بغدنا المقبل . وقد يكون هذا اليوم عيدا لعبد من عباد الله السعداء المجدودين ، وقد يكون ذكرى لحدث سياسي يعرفه تلاميذ المدارس من كتب التاريخ ، قد يكون هذا أو ذاك ، ولكن خيره وشره ليس إلا ظلا عارضا يتقلص ويتمدد .

لم تكن ميونخ فى ذلك اليوم خيرا منها فى غيره من الأيام ،

وليست ميونخ من البلاد العزيزة على نفسى حتى أفرد لذكر أيامها فصولا وكتباً ، وليست هى كذلك بالبلد السقيم المجدب الذى لا نذكره إلا فى ساعة عابسة سوداء .

ومع ذلك ليس نابياً أن نجعل لهذا اليوم – من شهر اكتوبر – ذكرى نشيد بها تطوعاً كما يشيد شاعر بذكر مجهول صادفه فى تجواله عرضاً . . !

ميونخ . .

وجدت ميونخ فى ذلك اليوم — اليوم الأول من شهر أكتوبر الفائت — كما عرفتها من قبل . وقضيت فيها يوماً واحداً من صباحه الباكر إلى هزيعه الثانى ، وهذا تقليد سلكته ثلاث سنين متواليات كلما هبطت ميونخ ، وما أهبطها إلا وأنا فى طريق الأوبة من الغرب إلى الوطن.

وأصبح تقليداً كذلك أن تقابلنى ميونخ ندية العين فى ذلك التاريخ من كل عام ، ولعلها دموع اللقاء مشوبة بدموع الوداع كما يصورها الشعراء ؛ وما دموع الشعر هذه إلا مياه المطر الدافقة التى تفيض بها شوارع المدينة وتجعل متعة الغريب فيها محدودة ، وتجواله عسيرا .

ولم يكن ذلك اليوم يحمل من تذكارات أيام الصيف شيئا ، فقد كان قارص البرد ، عاصف الريح ، ماطراً هتاناً . وكانت ميونخ تبدو يومئذ كأنها تستقبل صميم الشتاء فى أقسى أيامه ، وما فتئت نوافذ المتاجر تعرض أزياء البحر ، وما زالت الواح الاعلان فى الميادين تدعو الناس إلى الفرار من لفحات الصيف فى المدينة !

وما كان أشد قسوة برد ذلك اليوم على حدائق الجعة فى مدينة الجعة ! لقد كانت تلك الحدائق الفسيحة فى مأتم حقا ، وكانت نقرات الأمطار على موائدها الخشبية المهجورة لحناً حزيناً مفجعاً . ووقف خلف النوافذ الزجاجية المغلقة عشرات الخدم بملابسهم الصيفية البيضاء يشاهدون هذه الفاجعة بسكون وحسرة . هل انقضى الصيف ؟ وهل سوف تهجر هذه الآلاف من المقاعد المصفوفة تحت أشجار اللندن حتى تدور الأيام دورة سنة كاملة ؟

لقد كان ذلك اليوم حاسماً ، لايعرف التردد أو المجاملة ، لذلك كان فظا إذ دهم الناس على غرة ، بيد أنا قد نحبه لهـذا

السبب نفسه لأنه كصاحب المبدأ الذى لا يقبل المساومة ولا المداهنة .

وهكذا نسـيـنا الصيف وأيام الصيف ، مابين يوم وليـلة .

أجراس الظهر

عند ما دقت أجراس « الرات هاوس » لم يكن هنالك ماينبيء بأن اليوم قـد انتصف حقا . إذ الشمس مافتئت محتجبة غائمة ، والبرد يـكاد ينفذ إلى صميم العظام فلا يشجع سائراً على التلكؤ ، وكأن الصباح الباكر قد أبى إلا أن يمتد إلى وقت الظهيرة وهكذا كان .

وعند ما تأخذ أجراس البلدية هذه تدق ، يجتمع حول الطرقات التى تؤدى إليها مئات النظارة من أهل ميونخ ومن الهابطين اليها ، لمشاهدة هذه الأجراس ذات التماثيل القديمة التى تشبه تماثيل كتدرائية سان ماركو فى البندقية . هذه التماثيل التى لاتدل على دقة فى الصناعة ولا ابداع فى الفن ، هى أشبه شيء بدمى الأطفال الفطرية التى تدور إذا ضغط على أطرافها وترفع أيديها بحركة بهلوانية سخيفة .

وهكذا درج الناس فى ميونخ على الاعجاب بهذه الأجراس والافتتان بنغماتها ، وإذا درج الناس على شيء فمن العسير أن تقف عبادتهم عند حد . وبين هؤلاء الواقفين تجد السائح الأمريكى ينظر باهتمام حيث تحملق مئات من الأعين ، يحاول أن يكتشف جمالا أو جلالا فيها . وهو الذى عاش فى عالم تقدمت فيه الصناعة والصياغة حتى ، أن هذه التماثيل لتبدو فى عينه شوهاء قبيحة كأنها عبث اطفال .

ويمر مواطن على هذا الجمع الحاشد ، فيستوقف نظره وقوف هذا الأمريكى وعنايته الفائقة بهذه الأجراس ، وهو الذى يمر كل يوم بها فلا يرى فيها جديداً ، لكنه وقد رأى هذه العناية من الأجنبى يشعر بأن سرا من أسرار الجمال قد خفى عنه طوال هذه السنين ، حتى جاء هذا الغريب فأزاح ستره عنه . فينضم إلى هذا الجمع حتى لا يؤخذ عليه أنه أقل تقديراً للفن وتمييزاً لألوان الجمال .

حب استطلاع

والألمانى بطبيعته محب للاستطلاع إلى حد يستحيل فيه هذا الحب نقيصة من النقائص ، ومرضاً من أمراض النفس .

فهو يستهويه الغريب ولو دعاه ذلك إلى أن يقف موقف ذلة وخسة ، وهو فى نشوته لايحس بمثل هذا الموقف النابى .

وهذه الطبيعة قديمة العهد عميقة الأثر فى نفس الألمانى ، فقد قرأت فيما قرأت عن كاتب أمريكى زار برلين منذ قرن مضى ، فذكر أن عربة وقفت مرة أمام أحد الفنادق ، وبينما كانت صاحبتها تعد نفسها للنزول وتحاور السائق عن الأجر ، كان قد اجتمع من السائرين من يكفى لتنسيق صفين من النظارة مابين العربة وباب الفندق ، وكان من بينهم عجوز راح يجلو نظارته بمنديله حتى يستمتع باقصى قدر من هذا المنظر الذى لم يكن فيه من جديد . . . !

وليس غريباً أن تقابل فى عاصمة كبيرة كبرلين ، ذلك الذى تكشف فجأة أنه كان ينهبك بنظره انتهاباً ، والذى ترى فى أساريره رغبة ملحة للحديث إليك ، وتحس بأنه يجاهد ألماً عميقاً كالذى ينتاب كل صاحب حاجة قاسية .

المرأة

والمرأة لاتتورع من أن تخطو فى سبيل متعة الاستطلاع

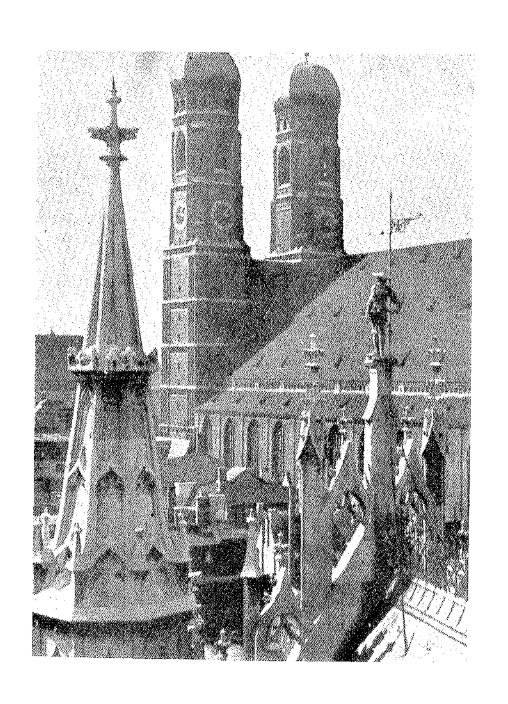
هذه حد المجاملة والعرف ، وهى فى ذلك مدفوعة بغريزتها النسوية القاسية . فقد يحدث أن يجلس غريب شرقى إلى جماعة من هؤلاء وهم فى غفلة عنه لسبب من الأسباب ، فاذا ما أضيء المكان ، أو صمتت الموسيقى ، أو انتهى الحديث الشائق ، وتلفتت السيدة الجالسة فجأة ووجدت هذا الغريب الذى لوحته شمس الشرق ، فغرت فمها وجحظت عيناها ، واختنقت فى حلقها صيحة لو وجدت سبيلها إلى الهواء لدوت كالصفير ..

فاذا مرت هذه الموجة النفسية ، استحالت نظرات الفزع إلى نظرات أقل حدة ؛ ولكنها مع ذلك لا تفقد شدتها وعنفها ، تشعر بها كأنها تنفذ إلى صدرك وتدفع الدم إلى عنقك . وأنت حيال هذه السيدة عاجز ضعيف الوسيلة ، ليس لك أن تزجرها على هذا التطفل ، ولا أن توجه نظرها إلى شيء آخر ، بل إن تطفلها ليزداد شدة إذا ما فتحت لسانك وتكلمت ، فتحملق إلى شفتيك كأنها تحاول أن تكشف كيف تتلوك الألفاظ وكيف تخرج المقاطع والكلمات .

كانت دقات الأجراس الاثنتا عشرة تسبح فى فضاء ذلك اليوم الصقيع ، فجعلتنى أتمثل تلك الجموع المكتظة حول الرات هاوس ، وأنا فى طريقى إلى المدينة بعد جولة على نهير الأيزر ، وهذا اليوم البارد له جماله بين أشجار الحدائق التى تدوى بينها الريح القاسية ، فلا ترى تحتها إلا عابر سبيل يهرول إلى ملجأ أمين .

وفى مثل هذا المكان الذى هرب منه الناس يحلو لى أن أتمهل إذ أشعر بشىء من الزهو والكبرياء ، عندما أتحدى بهذه الخطوات الثقيلة المطمئنة . راكب الدراجة المسرع فى طريقه ، لأننى أحس بأن هذا التثاقل سيثير فيه نوعا ما من التفكير ، وأيا كان هذا التفكير فان فيه الكفاية لارضاء شهوة المكابرة هـــذه فى نفسى .

وتحت شجرة فى هذه الغابة ، جاست سيدة عجوز تبيع الفاكهة فى هذا الجو البارد المثلوج ، جلست بسكون واطمئنان كأنها لاتأتى أمراً غريباً نابياً ، فمن الذى ترقبه السيدة أن ينعطف عليها فى هذا المكان الموحش القفر ليشترى منها فاكهة كادت تتلور من برد ذلك اليوم ؟



أجراس الكنيسة

مررت عليها وهى مطمئنة هادئة واثقة بنفسها وبأثمارها فلم يثر تلفتى إليها اكتراثاً ولا اعتباراً ، وأنا أعجب لمن سولت له نفسه أن يأكل من ذلك الموز المثلوج فى يوم مقرور مثل هذا ؟ حتى إذا وصل تفكيرى إلى هذا الحد أحسست برغبة فى أن أكون ذلك الرجل الذى يأكل الموز المثلوج فى اليوم المقرور ، أردت أن أكون ذلك الرجل الذى يتحدى افكار الناس ولو كان هو نفسه صاحب هذه الأفـكار . . !

وهكذا ذهبت إلى هذه السيدة لأشترى منها شيئاً من الموز ، فوجدتها كما مررت بها ، لا باسمة ولا متبرمة ، لا متسائلة ولا متعجبة ، ونقدتها ثمن ما اشتريت وهى تضع موزتين فى جراب من الورق ولا تكاد ترفع عينيها إلى مكانى .

ثم إننى سرت متمهلا على حافة النهير ، ووقفت متكئاً على سوره أقضم هذه الفاكهة دون أن أخلع قفازى ، وكان لذلك الموز طعم خاص ، كأن موز الشتاء فصيلة غير ما عرفت من قبل من ألوان الموز .

وفى ذلك الطريق عرجت على مكان فى وسط الحديقة متتبعاً خطوات عدد وافر من النساء يسرن نحوه بعزم دون أن يتلفتن إلى مافى الحديقة من تماثيل وتذكارات تاريخية . وكان المكان تحتويه حفرة لايكاد يظهر منه إلا سوره الحجرى، فكان ما ظننت أنه ينبوع من الينابيع الدافقة وقد وجد طريقه إلى هذا المكان الفاتن من الحدائق .

سرت فى آخر هذا السرب من النساء — وكن لسبب لم أعرفه إذ ذاك متشحات بالسواد — فانحدرنا فى سلم من الحجر ينتهى إلى فناء صخرى دائر تتوسطه قاعة مفتوحة الأبواب . وعلى جدران المكان نقشت الآلاف من الأسماء فى صفوف رأسية رتبت بحسب حروف الهجاء ، على رأس كل طائفة منها حرف كبير من الحروف ، فكانت بذلك أشبه شىء بفهرس كتاب علمى .

الجندى المجهول

كان هذا المكان — بداهة — نصبا من انصاب الجندى المجهول ؛ وأنصاب « الجندى المجهول » أصبحت بدعة ناجحة

منذ الحرب الأخيرة ؛ فى كل مكان تنزله اليوم فى أوربا : فى دويلات البلقان ، فى اسكتلندا أو فى جزائر البحر الشمالى ، أول ماستقبلك هذا النصب ، حتى لم يعد يثير فى نفس الزائر — من تعدد هذه الأنصاب والتفنن فى إقامتها — ان المدفون تحت أرضها بطل مجهول سعينا إلى تخليد ذكراه على رغم أنفه وعلى غير رغبة منه !

لا ! لقد أصبح الجندى المجهول اليوم شخصية مادية تهوى الدعاية وتسبق الناس إلى التمجيد بأفعالها . ومن يدرى فلربما كان هذا الجندى الذى كان من نصيبه التخليد والتمجيد غير موضع للبطولة والعظمة ؟ !

أليس من المحتمل أن يكون هـــذا الجندى الذى يرقد تحت هذه الأنصاب ، وتحفة الزهور التى لاتعرف الزواء ، من جنود الضرورة الذين سيقوا إلى الحرب خوفاً من عقاب لارغبة فى القيام بواجب ؟ أليس من الجائز أن يكون هذا الجندى قد قتل وهو ممعن فى الهرب لامقدماً على هجوم !

وبعد أن راجعت القافلة أسمـاء معينة على جدار المكان ؛ وبعد أن وضعت باقات من ازهار برية فى أركان القاعة الفارغة

سرن دون توقف وهن يتحدثن ويتساررن ، وما أن وصلن إلى الطريق حتى تفرقن ، وسرت بعدهن فى سبيلى .

شمس تشرق

وفى ذلك الوقت أخـــــذت الشمس فى الشروق من بين السحب العالية المتراصة ، وكانت تدفعها الريح بقوة هائلة كأنها سوط سائق جبار ، كانت تبدو على أحواض الورد المغروسة فى هذا المكان كأنها أنوار سيارة تظهر وتختفى فى الظلام. ولم يرحم الشتاء ولا الريح تلك الأحواض من الورد الأحمر الكبير فقد مزقت أوراقه ونثرتها ، وصارت تتقاذفها بها كأنها أوراق الخريف الناشفة ، تجمعها تحت أسوار الحديقة وتحت أقدام السائرين .

وفى غير هذا اليوم القاسى كانت تتجمع أسراب من الفتيات والأطفال حول هذه الأحواض من الورد ، ولكنها اليوم هجرها الجميع إلا أسراب الحمام الأسمر ، الذى احتل المقاعد وتجمع تحت الشجيرات .

وبينا كنت أعبر ميدان النصر كانت قافلة من السيارات تقفل الطريق ، حتى كدت أصطدم بسيدة تدفع عربة وهى تهرول إلى ناحيتى، وكنت أحس بأن أعين الواقفين على جانبى الشارع تفحصنى باهتمام. وتنتظر من هذا الغريب أن يخطىء فى شىء من الأشياء ، حتى يكون ذلك موضعاً لحديث أو سمر او نقد ، فاذا حدث واصطدم هذا الغريب بآخر، قرر الناس عجزه وغباءه حتى عن السير فى الطرقات ! وإذا حدث وأطارت الريح قبعته أوانفلتت رجله وهوى على الأرض ! كان ذلك فى نظر هؤلاء الواقفين حدثاً عجيباً ؛ وإذا رأى ما أثار ضحكه نظروا إلى فمه وهو ينفرج وينطبق بامعان كأنهم لم يسمعوا من قبل صوت ضاحك . . . ؟

والغريب الذى يجهل لغة جماعة من الناس يحسبه البعض فى عداد البلهاء ، كأنه وقد عجز عن الحديث بلسانهم عاجز عن كل شىء ، حتى عن الابتسام عند الفرح، أو البكاء عند الحزن ! .

لم أكن أسير بلا غاية ، لأننى كنت أبحث عن مكتبة عرجت بها صباحا ، عرضت فى نوافذها مجموعة من الكتب الألمانية الحديثة والقديمة بأثمان مخفضة . وقد كتبت هذه الأثمان بالمداد الأحمر ، بعد شطب الثمن القديم بشكل واضح لايدع عند المتفرج مجالا للشك أو التردد .

وللكتب الرخيصة سحر خاص ، يستولى على المتفرج ويدفعه إلى التنقيب فالشراء . وأعجب من هذا أنه إذا وجد من بينها كتاباً سبق أن اشتراه بثمن مرتفع ، فان نفسه قد تسول له أن يعيد شراءه بهذا الثمن الرخيص انتقاماً لنفسه من نفسه !

فمنذ أيام معدودة كنت قد اشتريت من برلين رواية جديدة عن الملكة المصرية نفرتيتى ، وهأنذا أجد اليوم هذه الرواية معروضة بنصف ثمنها فى نافذة هذه المكتبة ولولا أن ما بقى معى من المال ومن المكان فى الحقائب لا يكفى لتحقيق هذه الرغبة العجيبة ، لكنت اشتريت نسخة أخرى من هذه الرواية

وفى النافذة الخلفية ، وجدت مجموعة من الكتب الانجليزية

القديمة المطبوعة في ألمانيا وفي غير المانيا ، فوقفت أفحصها بشغف وعناية مع أنها عتيقة سقيمة ، ولكنني في الحقيقة أحسست بزهو وغرور من هذا الفحص ، بين هؤلاء المتفرجين الألمان الذين أعرف ان معرفتهم بالانجليزية لاتزيد عن قراءة عناوين هذه الكتب .

وأكثر ماتستهويني الكتب الانجليزية وأنا في غير بلادها؛ فاذاماهبطت لندن، كان أحب ماتصبو إليه نفسي أن أقرأ الصحف والمجلات الألمانية يوما بعد يوم ، كأنني حريص جد الحرص على تتبع تطورات الحياة الألمانية وما إليها ، ولكن هذه الرغبة تهبط كثيراً إذا رحلت إلى ألمانيا نفسها

وربما كان هذا الميل الى المخالفة لونا من ألوان حب الظهور ، الذى لايريد بعض الاخوان إلا أن يعرف عنى ؟

أمام بائع الأحذية

وعند دكان الأحذية المجاور وقفت قليلا، وإلى جانب سيدة معها طفل في عامه الثاني ، يطل بعيون فارغة نائمة الى زجاج النافذة حيناً وإلى الواقفين حيناً آخر ، وأمه لاهية تفحص بانتباه شديد عشرات الأحذية النسوية المعروضة :

ثم انتقلنا جميعاً إلى دكان الجوهرى المجاور ، وكان جمع المتفرجين أمامه وفيراً لاسيما من النساء ، وجاءت السيدة بعد قليل تجر عربتها وقد جذبتها المعروضات حتى ألهتها عن طفلها ، الذى أبدى كل علامات الضجر والسآمة من هذا التنقل بين نوافذ المتاجر ؛ ومع ذلك فلا هو قادر على أن يضع لضجره حدا ولا هى تحس بما يدور فى مخيلة هذا المخلوق الصغير ، الذى لو اسعفته إرادته لما وقف دقيقة أمام هذه النافذة ولفر إلى وسط الشارع ليلهو بالمطر الذى أخذ فى التدفق من جديد .

الغذاء

لم يعد بد من البحث عن مكان دفىء مريح ، إذ السير فى هذه الشوارع تحت المطر الدافق والريح الباردة ليس بالأمر الهين . وليس أمتنع فى مثل هذه الساعة من أن تقضى وقت فى مطعم من مطاعم الجهة عرفت عنها ميونخ .

وفى شارع كوفنجر وهو الطريق الأوسط فى ميونخ عدد وفير من هذه المطاعم ، وفى كل عام أمر بها واحدا واحداً ، وأقرأ جانباً من قوائمها الواسعة ، التى دونت فيها عشرات من ألوان الطعام



ولم يكن ذلك اليوم يحمل من تذكارات الصيف شيئا ..

بمطبعة الفراء البنفسجية وتداخلت سطورها حتى لم يعد فيها مجال لكتابة حرف واحد ، فجعلته رهيبة كأنها إعلان من إعلانات المحاكم . . . !

ولكن فى كل قائمة من هذه القوائم جانب يعرفه من اعتاد التردد على هذه المطاعم حيث أطباق « الجدك » و « اشتام إسن » التى تعرض بأثمان معقولة مع وفرة فى الكمية فيستعاض بها عن وجبة كاملة . وفى كل قائمة ركن خاص بالوان الأطعمة النباتية ، وهى أول ماأبحث عنه فى كل قائمة ، ولكنها لاتكاد تذكر فى مطاعم الجعة هذه التى تطغى عليها الحيوانية أشد طغيان فتقدم اللحوم فى أطباق واسعة كالتى نعرفها فى الموالد والافراح

وكان المطعم غاصا مزدحما فلم يدن لى إلاّ أن اشترك مع بعض الجالسين حول مائدة من تلك الموائد الجانبية المستطيلة التى مدت حولها مقاعد عريضة وثيرة ؛ تشجع الجالسين على النوم أكثر من أن تساعدهم على فتح الشهية . .

ولم يكن بها الا رجل واحد وزوجه .

وبعد الانحناء والتحية التقليدية ، جلست وأسرعت فى

فتح صحيفة أو كتاب كان معى ، غير متلفت إلى هؤلاء الجيران وغير متلهف على قراءة القائمة . لأنى من الذين يخشون تبرم جيرانهم من محاولة التطلع إليهم ، ولم أبد تلهفا على قراءة القائمة شعوراً منى بأن ذلك ضرب من ضروب النهم ، والحقيقة أننى قد درست القائمة وألوانها قبل أن أدخل المكان ، فلم تكن بى حاجة إلى تكرار ذلك .

ولم يكن لون السمك الذى تخيرته شائقا مقبولا ، ولم يكن له من ميزة إلا أنه كان وافر الكمية تحيط به كومة من البطاطس المقلى وتتبعه أطباق السلاطة الخضراء . لذلك كانت هذه الوفرة داعية الى الحد من قيمته والاستخفاف بدرجته من الجودة .

وهذه الأطباق الوفيرة ليست مما تتميز به ألوان السمك بل إنها العادة لاسيما فى مطاعم الجعة ، فهذه البطون الألمانية المتمددة ليست من فعل الجعة وحدها بل ان لهذه الأطباق الواسعة الكريمة أثرها الكبير فى تكورها وتعددها .

وقضينا فترة طويلة قبل أن تمن علينا الخادمة بما طلبنا من طعام ، ولم تطق السيدة التى جاورتنى صبراً على الانتظار فقربت

الطبق الواسع الذى تقدم فيه قطع الخبز البيضاء والسمراء ، وأخذت تقطع الوقت فى التهام هذا الخبز المجانى .

مجاناً . . !

والخبز المجانى يقدم فى أكثر المطاعم الألمانية ، ولعل ذلك لأن رغبة الألمان عنه معروفة ، ولولا هذا لوجد الخبز مكانه فى قائمة الطعام كما فى فرنسا . وفى أيام الشتاء نشاهد أولئك الذين يطلبون طبقا من الحساء الساخنة الرخيصة ويلتهمون بجانبها عشرات من هذه الأرغفة المجانية ، يصهرونها فى هذا السائل الفائر . ومواطنونا الأعزاء وهم الذين يجعلون للخبز — بحكم العادة — المكان الأول من طعامهم ، يعرفون هذه الحقيقة ، فتراهم يتحققون من نظام كل مطعم قبل دخوله ، ولا بدع فان مطاعم الخبز المجانية لها الأفضلية بل والسحر فى عيونهم ، ولو كانت أطعمتها غالية مرتفعة الثمن ؛ لأن التفكه بقضم الخبز بلا حساب لذة دونها كثير من ملاذ الطعام نفسه .

والمطاعم الانجليزية تضيق الخناق على أنصار الخبز مع رخصه فى المخابز ، فان قرص الخبز الصغير يقدم ببنس واحد ، وعشرات

من هذه الأقراص لا تكفى لاطعام وجبة كاملة لمصرى مفتوح الشهية سليم الأسنان والأضراس !

طاغية الخبز

أعرف زميلا لنا فى لندن كان من طلاب الصناعات ، طرق لأول مرة مطعما ، فقدمت له الفتاة بحكم التقاليد قرصا واحدا من الخبز ، التهمه قبل أن تدير الفتاة ظهرها . ثم مد يده إلى ما على المائدة من هذه الأقراص ثم طلب غيرها وغيرها ، وهو يكاد يتميز غيظا من هذا التحكم الجائر فى مكان يدفع فيه ثمنا لأكله ، ولم تجد الفتاة بدا من أن تحضر سلة صغيرة من أطباق الخبز ووضعتها أمامه .

وكانت دهشتها أعظم من عجب صديقنا ، لأنها سرعان ما أفضت بهذا السر الهائل إلى زميلاتها وأخذ هذا الخبر يتناقل من لسان إلى لسان ، حتى أصبحت عيون العاملات فى ذلك المطعم لا تفتر لحظة عن الحملقة الى ذلك الجبار ، الذى ينقض على هذه الأقراص دون هوادة أو حذر من التخمة . . !

والخبز الأسمر أكثر أنواع الخبز شيوعا فى ألمانيا ، بل انهم لا يستعملون الخبز الأبيض الا فى مطاعم خاصة ، هذا مع استثناء طعام الافطار . والأرغفة السمراء قبيحة الشكل تبدو كأنها نماذج من الصلصال ، ولكن الألمانى يفضلها عن خبز القمح . ولا تجد ألمانيًا يترك منزله فى الصباح دون أن يحمل فى حقيبته قطعتين من هذا الخبز مدهونة بالزبد ليتناولها فى الضحى

ولا يجد الألمانى — أيا كان مركزه الأدبى أو سنه — ضيرا من أن يخرج هذه اللفافة من الخبز إذا حان وقت الضحى ، وهو فى مركبة الترام أو حجرة عمله ، وأن يأخذ فى التهامها .

حدث فى هذا الصيف أن كنت ضيفا على مدرسة للاطفال فى برلين ، فلما كانت فترة الضحى ونحن فى حجرة من حجرات الدراسة ، هرع بعض الأطفال وأحضروا كوبات من اللبن من مطهى المدرسة ، ثم فتح كل طفل حقيبته وأخرج قطعتين من الخبز الأسمر

ولما جرت العادة بيننا فى الشرق على أن مراقبة الآكلين

ولو كانوا أطفالا أمر غير سائغ ولا مقبول ، لذلك وقفت أفكر في الانصراف ، وفي أثناء ذلك فتحت المعلمة حقيبتها كذلك وأخرجت قطعتين من هذا الخبز . . . .

وكنت إذ ذاك أتحدث إلى طبيبة نمسوية زائرة وأقترح عليها الانصراف ، وبينا أنا كذلك اذا بهذه السيدة الزائرة تفتح حقيبتها بدورها لتخرج قطعتين من هذا الخبز الأسمر ، وراحت تقضمها ونحن وقوف نتحدث . . .

وفي ضحى اليوم الثاني ، كنت أخرج قطعتين من هذا الخبز الأسمر المدهون بالزبد من بين أوراق حقيبتي وكتبها ، ورحت أقضمها بشهية ولذة ... !

في سبيل الحلوى

وبعد أن انتهيت من تناول جانب من هذا الطبق العظيم الذي قدم الى ، أخذت أفكر عما اذا كان من توابعه لون من ألوان الحلوى ، ومع أنني لم أبد اكتراثا أو استنكارا للخادمة عندما جاءت وحملت ماخلفت من الطعام ، إلا أن تفكيري في هذه الناحية كان جديا ، بيد أنني فضلت الانتظار خوفا من

أن أكرر الطاب فأدفع عن ذلك ثمنا مزدوجا ، وأنا فى حاجة إلى الاقتصاد فى هذا اليوم .

وكان أن انتهى الجالسان بجانبى من تناول الطعام وطلبا لونا من ألوان « البودنج » بالقشدة ، وما أن وضعت الخادمة هذين الطبقين حتى انصرفت السيدة إلى التهامه ، وكان زوجها متلكئا غير جاد فى أكله ، فلم تُضَيِّع السيدة وقتا بل إنها أدارت وجهها إلى طبق زوجها وقضت عليه بابتسامة طفيفة ، كانت كل ما نال هذا الرجل المهضوم الحق من جزاء .

وفى أثناء ذلك ، لا تجد بدا وقد انتهيت من طعامك من أن ترقب عن كثب فم الجالسة اليك وهى تزدرد طعامها ، وما أسرع أن تكشف مبلغ القبح الذى يفيض به الوجه خلال ذلك ، فالأضراس السوداء التى يخفيها الفم المقفول تبدو الآن قبيحة ، واللثة الصفراء التى تغطيها الشفاه تبدو الآن مفزعة مقبضة ، ثم انك لتشاهد الطعام وهو حائر خلف الفم المطبق مندفعا إلى هذا الخد تارة و إلى ذلك أخرى ، فتحس بانقباض ونفور .

وفى خلال هذا الجهاد فى سبيل الازدراد والبلع ، تتمثل لك شخصية الآكل فى صورتها الطبيعية ، صورة لا تنفع فى إخفائها

شفاه مخضبة ، أوخدود مدهونة ، أو أسنان مصقولة ، هى شخصية الانسان الحيوان . . .

بائع لعب

وقد قطع علىّ حبل هذه الدراسة الفلسفية بائع متجول أخذ يتنقل من منضدة إلى منضدة . هو شيخ كبير له لحية بيضاء طويلة زاهية ، كأنها اصطناعية ، مما يستخدم على المسارح ؛ ولكنه كان بادى الفتوة ، باسم الثغر كأنه « سنت كلوز » رسول أعياد الميلاد إلى الأطفال .

وكان هذا الشيخ كذلك يبيع اللعب ، يحملها فى جراب معلق على كتفه ، ويعرضها بلباقة على الجالسين من صغار ومن كبار ، وهو لا يفتر عن الابتسام وابداء الملاحظة الطريفة والفكاهة المستملحة ، يداعب كل طفل يمر به ، أو يلاعب كلب السيدة الجالسة . فهذا الشيخ فى مرحلته الأخيرة يعيش بحكم مهنته فى جو أبعد ما يكون من هذه المرحلة التى يجتازها إلى الأبدية ، إنه يفكر ويبتكر فيما يجعل حياة هؤلاء الضيوف الجدد على الأرض بهيجة سائغة . كم هى مفارقة عجيبة !

والآن وقد مضى هذا الشيخ ، وقد انتهى كل آ كل من طعامه وشرابه وتدخينه ، بدأ المطعم فى السكون واستولى على الجالسين مال عجيب ، لاسيما أولئك الذين لا يرغبون فى مغادرة المكان إلى الشوارع التى تفيض بالمـاء .

وأخذت بعض أنوار المطعم الزاهية فى الخفوت بعض الشىء ، واستولى علىّ ذلك الخمول الذى يغشانى كلما تناولت طعاما اللهم إلاّ طعام العشاء . وأحسست برغبة ملحة إلى النوم والتمدد على هذا المقعد الوثير الذى أحتله الآن وحدى .

ولم تعد بى حاجة إلى التدخين أو الشرب ولا رغبة فى القراءة أو التفكير فى شىء من الأشياء ، وأصبح منظر الجالسين حولى سخيفاً مقبضاً وحديثهم لا معنى له ولا مغزى من ورائه . خمس دقائق فقط هى كل ما أحتاجه من الراحة ! لقد تخيلت مكانا منزويا فى هذا المطعم ، مكانا دفيئاً خافت النور مريحاً كهذا المقعد الذى أجلس عليه ، وتخيلت أننى أتمدد عليه بملابسى كاملة بعد أن نثرت ما أحمله من صحف وأوراق على أرض الحجرة بلا اكتراث . .

كان ذلك الأمل كأنه الحلم ؛ ثم انى انتقلت إلى نقطة أخرى بل إلى مشكلة جديرة بالبحث وهى ماذا أنا صانع الآن ؟ وقدانتهيت من الأكل وجلست طويلا فى هذا المطعم . . . ماذا أنا صانع ؟ وأين أقضى الساعات الباقية إلى المساء ؟

أين هؤلاء الدين يقولون ان الوقت من ذهب ، وان الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك ؟ أين هؤلاء ليروا بأعينهم كيف أننى أبعثر هذا الذهب دون أن أعرف كيف أقضى عليه جميعاً غير آسف ولا نادم !

طالب وطالبة

ولكن هاقد هبط علىّ الفرج ! ، فقد أقبل إلى ناحيتى ضيوف جدد ، شاب وفتاة لعلهما من طلاب الجامعة ، وقد وجدا فى مقعدى البعيد عن العيون مكاناً مرغوباً فيه من كل شاب .

ولعل الفتاة كانت ترغب فى أن يكون المكان جميعه لها ، لها وحدها ! وهذه رغبة تجار فى نفس كل فتاة صبية ، أو امرأة كاملة . وعندما وجدتُ هذا التردد من جانب الفتاة فى الجلوس ، خفت أن تفلت هذه الفرصة الذهبية ، وأن أعود لأجلس وحدى أفكر من جديد فى النوم والراحة .

لذلك أسرعت وفتحت صحيفة وأخفيت وجهى فيها محملقا إليها بعيون فارغة نائمة . وهذا النوع من الجالسين ؛ الجالس الذى لا يمل من القراءة : فاذا انتهى من الصحيفة عاد إليها ، وإذ انتهى من ذلك أسبل عينيه ونام ملء جفونه ـ هذا النوع من الجالسين غير موضع للحذر أو الخوف من جانب صديقين يتساروان أو عاشقين حبيبين ، إذا اشتركا معه فى مكان كهذا المطعم .

وليس هناك أسمج من ذلك الذى يحس أن من واجبه أن يقيد على الجالسين كل حركة ولفظة ؛ والذى يهمل كل شىء حتى قراءته وأكله ، ليفحص هذين الصديقين ، ويضع كل ايماءة وكل ابتسامة موضع النقد والتقدير . . . كأنه موكل بهذا الاستقصاء أو راغب فى دراسة نفسية خطيرة .

تطفل .

وقد يندمج هذا الغريب فى جو الجالسين حوله فتراه لا يقتنع بالابتسام إذا سمع ملحة مستطرفة ، بل إنه يقهقه بملء حنجرته ويدق المنضدة إعجابا واستحسانا ، دون أن يطلب منه ذلك .

وقد يدفعه ذلك إلى الاشتراك فى المجادلة وابداء الرأى ، وقد

يناصب الجالسين بجواره العداء بدون سبب ولا حاجة إلى ذلك. فينصرف هاًبجا مائجا ، وليس لأحد يد فى ذلك اللهم إلا تطفله السخيف .

وقد يشترك معك هذا الغريب فى قراءة صحيفتك ، فاذا كنت رقيق المزاج لم تجد بداً من أن تتمهل فى تقليبها إذا أحسست بأن عيون جارك مازالت لا صقة بصورة أو خبر من الأخبار .

هؤلاء المتطفلون يلعبون دوراً هاماً فى حياة الشباب ، فينغصون عليهم وحدتهم وأحاديثهم ، ويسفهون آمالهم وأحلامهم ، ويتداخلون فيما لا يحل لهم بحكم الدوق البسيط .

ولا بد أن الفتاة قد شعرت باطمئنان وراحة ، لانهما كى فى القراءة ، ولهذا الانصراف المصطنع الذى أبديته نحوها ، لأنها وضعت حدا لترددها ، وبدت على أساريرها الراحة والرغبة فى الجلوس فتقدمت إلى ركن المقعد وجلست بعد أن خلعت معطفها المبلل ، ونثرت قبعتها وقفازها ثم تبعها صديقها الذى جلس قبالتها على نفس مقعدى .

وأخذت الفتاة تقلب قائمة الطعام الكبيرة ، وانصرف

الفتى كذلك إلى دراستها وموازنة ألوانها وأثمانها ، ولعله وصل إلى نتيجة معينة لأنه نادى على الخادمة وطلب منها القائمة الخاصة بالطلبة .

مطاعم الطلبة

وللطلبه فى كل مكان فى أوربا اعتبارات خاصة ، لاسيما فى أثمان المطاعم ، لهذا قلما يبعد الطلاب عن الأحياء التى يعترفون لهم فيها بهذه الامتيازات .

وقصة الحى اللاتينى فى باريس وحياة الطلاب فيه ، قصة قديمة معادة . فاذا عبرت السين واحتواك بولفار سان ميشل يستقبلك هذا الحى بمقاهيه ومطاعمه ومكتباته القديمة ، ثم بطلابه الذين يحافظون على تقاليده فى كل مكان يهبطونه فى هذا الحى وشارع السرون وما يتفرع منه من دروب وأزقة ، تتجاور فيه هذه المطاعم التى تقدم ألوانا من الأطعمة الرخيصة الى هؤلاء المترددين عليها من طلاب السربون ومن مدارس الحى المختلفة .

وحى « جاورا ستريت » فى لندن الذى تتوسطه « الكلية الجامعة » يتميز بهذه المطاعم الرخيصة والفنادق الصغيرة التى يمثل

فيها طلاب لندن دورا هاما . فاذا جاء وقت الصيف وقفلت الكلية الجامعة أبوابها وتبعتها المعاهد المتفرقة فى هذا الحى ، هبطت الحركة والنشاط فى هذه المطاعم والفنادق وقد تقفل بعضها الأبواب إلى بدء الموسم الجديد .

جاءت الفتاة بهذه القائمة المنشودة ، وتركت الطالبين يدرسانها و يفحصانها على مهل . كانت هذه الفتاة تشبه جد الشبه إحدى أولئك الخادمات اللاتى يعملن فى مقهى « شاتن هل » فى برلين ، حتى شعرت براحة الى النظر اليها والحديث معها .

وجوه معروفة

وهذا الشبه بين الفتيات قد يتقارب الى أبعد حد ، وقد يختلط على المعجب فيحس بأن هذا الوجه الفاتن معروف لديه ، وهذه المعرفة فى نظره كل السبب فى الفتنة والسحر الذى يفيض به ذلك الوجه . ولكن الحقيقة أن الفتنة والسحر والرغبة هى التى تولد هذا الشك ثم الشعور بالمعرفة .

فقد عرفت صديقا لنا زار لندن للمرة الأولى و بينما كنت أسير معه فى ميدان ترافلجار أخذ يحملق بشدة وذهول الى مكان فتاة

بائعة ، وإذا به يفضى إلى بسر هذه الدهشة ، وذلك أن الفتاة من معارفه المقربين فى القاهرة ، فقد كان يراها كل يوم وإن لم يكن يتحدث إليها . وأن مايحار له عقله كيف أن هذه الفتاة التى تركها من أسبوع فى القاهرة ، قد وجدت طريقها كذلك إلى لندن ووجدت عملا بهذه السرعة العجيبة ! !

وكان صديقى مخلصاً فى تصوراته ، وصل به هذا الايمان إلى إمكان حدوث ماظن أنه حدث . ورحت من جانبي افسر له مبادىء علم النفس فى التصور والمغالطات فلم يسمع ، بل أخذ يعنفنى على هذا الخلط فى الحديث ، وراح يرمينى بأننى رجل نظرىّ عشت بين الكتب ، وأقفلت عينى عن حقائق الحياة الواضحة المتألقة ، مستلهما ما فى كتب علم النفس وغيرها من نظريات ، كتبها كاتب فى حجرة مغلقة بين رفوف الكتب المغبرة القديمة .

الزميلة .

فى خلال هذه المحاورة الفكرية ، أخرجت غليونى من جديد وملأته بقدر كاف من التبغ ، لأن المجلس أصبح جديراً

بالتيقظ والانتباه . وفيما كان الرفيقان يقطعان مرحلة الغداء مرت بنا فتاة يصح لنا أن نقول بأنها «هيفاء» لأنها كانت طويلة ممشوقة القد مسترسلة الشعر تلبس ثوبا أبيض زاهيا وقبعة جذابة مبتكرة ، وما أن تقابلت عينها برفيقتى الجالسة حتى أسرعت إليها بشغف ورغبة ، وأخذتا تتبادلان التحية فى لهفة وسرعة ووقف الفتى ينتظر أن تقدم اليه الفتاة كما جرت بذلك العادة حتى مل الوقوف ، والفتاتان غارقتان فى السؤال والحديث والتحية.

كانت الفتاة زميلة طالبة ، عرفت من حديثها أنها مجرية قد تركت الجامعة لتتزوج ، وقد مضى على زواجها وغربتها من حياة الدراسة عامان . عامان طويلان أو قصيران فى عالم أبعد ما يكون من الحياة الجامعية ، حياة الكتب والدفاتر واللهو البرىء .

وما أسرع أن يخلق الزواج الفتاة من جديد ، إن روحها تتغير ، ان مزاجها يتبدل ، ان ذوقها حتى فى اختيار ملابسها يتجه اتجاها آخر .

لم يكن عجيبا أن تتقابل الفتاتان بهذه اللهفة ، فلقد أثارت

هذه المفاجأه كل ماتحمل الواحدة منهما من شكوك ! كم تود أن تجلسا الآن منفردتين بعيدتين عن اذن رجل ولو كان زوجا ؛ لا ! بل ان هذا الزوج سيكون موضع الحديث والسر المفضوح المعروف !

الصراع مع النوم . . !

وما ان انتهت الفتاتان من الحديث والسلام ، وجلست رفيقتنا فى مكانها من المائدة ، حتى سرى فى المجلس جو جديد ؛ فالفتى لم يكن ليعرف كيف يعلق على هذه المقابلة المفاجئة ، ولا كيف يقطع استرسال صديقته فى التفكير .

ولعلها كانت تفكر فى الزواج ، أو فى وعد قطعه لها هذا الجالس بجانبها ، فهذه الصديقة قد أثارت فى رأسها هذه الوعود والعهود وقطعت حبل أحلامها وجعلتها تنظر إلى المستقبل بعين مغبرة قاتمة . فكانت تزدرد الحلوى بلا رغبة ولا شهية وعينها معقودة بغير شىء معين حتى استولى السكون على المكان .

وشعرتُ بالتعب يستولى على من جديد ، واحسست ببرود فى باطن الأجفان وقد سمرت فى وضع واحد حتى أصبح عسيراً ان أوجه النظر إلى شىء غير غطاء المائدة الأبيض الذى جلب

على النوم بشيء من الحدة ، وأصبحت كأنني أجاهد شيطاناً مارداً ، فكتمت تثاؤبي بين أشداقي ولكنني كنت أحس بأن هذا الهواء الذي يصحب التثاءب قد وجد طريقه من فتحات العيون .

ثم انني أخذت أشجع نفسي على الحركة ، فأهز رأسي بلا غاية كأنني أريد أن أهرّب النوم الذي حط على شعر رأسي ، ثم أخذت أفرك يدي بشيء من القسوة وأعد أصابعي وعقلاتها مرة من اليمين وأخرى من اليسار ، وحينا أبتدىء بعدها فردياً ومرة أبدأ بعدد زوجي .

وهكذا أخذت أفتن في اثارة نشاطي حتى بدأ الصداع يتطرق إلى رأسي وحتى أحسست بأنني عاجز عن الاسترسال في هذا الجهاد . وفي هذه اللحظة لم أتردد ، بل انني وجدت نفسي واقفاً على قدمي ، وأخذت أجمع أوراقي وأقفل أزرار سترتي استعداداً للخروج في الهواء ثم أخذت معطفي في غفلة عن الخادمة ولبسته بسرعة ولهفة خوفا أن تقوم هي بهذا الواجب .

... وليس أثقل على النفس ممن يساعدك في غير مجال للمساعدة ،

فارتداء المعطف ليس بالأمر الهائل المعقد الذى يستلزم أن يهرع اليك رجل طويل عريض ليحمله من ورائك وليدلك على موضع الأكمام منه كأنك لم تعرف طبيعة هذا المعطف من قبل ، وكأنك لاتلبس ملابسك كاملة فى خمس دقائق .

وهذه المساعدة التى تجـدها عند ارتداء معطفك ليست الواحدة من نوعها فى حياة المقاهى والمطاعم ، بل ان كثيراً من هذه التقاليد السخيفة قد ابتكرها خدم هذه المطاعم لاكتساب حقوق جديدة .

عالم الخدم

وهذه الحقوق التى فرضها هؤلاء الخدم فى مطاعم أوربا وفنادقها هى نوع من تلك الضرائب التى تفرض استبداداً فى إبان الأزمات والثورات الأهلية ، لايرجع فى فرضها الى حق ولا فى جمعها إلى ذوق أو مجاملة . وهكذا هؤلاء الخدم . .

فقد ترغب فى غسل يديك فى بعض هذه المقاهى فيستقبلك رجل أنيق فى حجرة أنيقة تعبق فيها رائحة زكية طيبة ؛ تراه وقد هب من مقعده فجأة ، بعد أن وضع الصحيفة التى كان يقرأها إلى

جانبه ، وأنزل نظارته إلى أنفه ، وراح يساعدك فى فتح الباب أو اقفاله من ورائك و يدلك على مكان صنبور خالٍ مع ان هذه الصنابير جميعها خالية إذ لم يكن فى المكان غيرك ! — ثم يقف من بعيد يرقبك وأنت تشمر عن ذراعك ، ويهرع إليك كلما حاولت شيئا كأن أردت خلع نظارتك أو اخراج منديل من جيبك . . !

وأنت أثناء ذلك مضطرب مختلج الأطراف من هذا الرقيب عليك الذى لاينى عن فحصك مرة إثر مرة ، ويبتسم اليك ببرود وإن كان يلعنك فى سره ، ويستخف طريقتك فى الاغتسال أوفى تصفيف الشعر ، ويستعجلك بحركاته وإن كان يبدى اليك كل إعجاب بهذه التؤدة التى تبديها فى عقد ربطة عنقك .

وقد يسأم من هذا السكون ، فيروح يرفه عنك ـ والحقيقة عن نفسه — بتلك الملاحظات المحفوظة فى كل مكان ، يسألك عن الجو وعن دخول الفصول إلى غير ذلك من لغو الكلام .

ثم تهيىء نفسك للخروج ، ويتهيأ هو كذلك لوداعك

إلى الباب ، وقد وضع فى طريقك على منضدة أنيقة وبجوار مطفأة السجائر ، وضع طبقاً به قطع فضية أو برنزية من النقود — بحسب مستوى المقهى الذى أنت فيه — فتقف أمام هذا الطبق ومن خلفك الحارس الأنيق ، وكأنك أمام مذبح من مذابح الهياكل ، فترسل أصابعك فى جيوبك تبحث لك عن قطعة من مستوى هذه القطع ، وأنت حذر من أن تخرج نقودك جميعا فى الهواء لتتخير منها المناسب الصالح ، وأنت فى حراسة هذا الرجل الذى لا يكل من التحديق اليك .

من المطعم الى الاسعاف

فى برلين ، وفى مطعم اشنجر الواسع الذى يطل على ميدان بوتسدام جلست أنا وصديقى ع . . . هذا الصيف نتناول غداء الظهر فى الساعة الثالثة .

وكان اليوم صائفاً ، يدعو إلى تفضيل الأطباق البـاردة . فـكان نصيبى طبقا من « سمك المايونيز » فأخذ ع . . يأكل ويكتب خطاباته التى لا تنتهى ، وأخذت آكل وعينى تتردد بين الصحيفة وبين رواد المـكان من الداخلين والخارجين فى المطعم .

ثم إننى أحسست بشىء لاصق بين أسنانى ـ لعلها شوكة من شوكات هذا السمك — نكأتها بلسانى فوثبت إلى حلقى فحاولت جذبها بكل طريقة لا تثير تقزز الجالسين فلم أفلح . فرحت إلى مغسل المطعم لأحقق هذه الرغبة .

وهناك اكتشفت شخصية ملاحظ المغسل ! رجل متمدد فى الطول ، ينظر بعينين صغيرتين من وراء نظارة مرتكزة على أنفه كأنه أستاذ فى جامعة ، قد أطبق فمه لا يفتر عن ملاحظة أوكلمة كغيره من ملاحظى هذه الغاسل .

لقد اندفعت إلى هذه الغرفة وانا أقفل فمى بيدى حتى لا أزدرد هذه الشوكة وقد بدا على وجهى شىء من اللهفة ، فلم يتحرك صاحبنا من مقعده ؛ لم أضع وقتا بل وقفت إلى المرآة أكشف عن مكان هذه الشوكة فى حلقى وأجاهد فى جذبها على الفور فلم أفلح ، وهذا الحارس فى مكانه يتوردنى النظر دون أن يسألنى مساعدة أو يرفه عنى بكلمة ، وقد وضع أمامه صنوفا من أدوات الزينة مما قد يستغل إذا رغب الرجل فى إغاثتى .

فلم أجد بداً من أن أسأله عن ملقط يؤدى هذه المهمة فهز

رأسه سلباً ، وسألته عن قطعة من القطن ففتح فمه ليعتذر عن ذلك أيضاً ، فضاق بجموده صدري فرحت أؤنبه على هذا التخاذل وهو ممثل الطب فى هذا المطعم الكبير :

ولعل كلامى قد أصاب منه جوابا ، لأنه طلب منى الانتظار وغاب برهة طويلة ، وعاد بصحبة شاب يلبس معطفا أبيض كرجال الطب له وجه مهضوم وشعر منكوش كالعلماء ونظارة ذات اطار اسود غليظ . فلما اقتربا منى أشار الخارس إلى بأن أتبعه ، وفهمت بداهة أن فى المطعم غرفة للاسعاف فى الطابق الأرضى ولا بد أن هذا الشاب ممن يقوم بهذا الواجب الطبي ، وليس أيسر عليه من انقاذ شوكة من حلق آكل إذ لعلها أكثر أنواع الاصابات شيوعا في مطاعم السمك ؟

وفيما نحن على السلم الخشبى طوق الشاب ذراعه حول كتفى ، وسألنى أن أنزل بمهل حتى لا أعثر ، ثم سألنى أن نستأجر عربة من عربات التاكس ؟ قلت وماذا نفعل بها ، ألسنا منحدرين إلى الطابق الأرضى ؟ قال كلا ولكن إلى مكان مجاور لهذا المطعم وأخاف ألا تقوى قدماك على هذه الخطوات »

فدفعت ذراعه بغيظ وقد صعد الدم إلى عنقى ، وقلت له « أتظن أن هذه الشوكة الصغيرة فى حلقى قد هدت أكتافى ونفثت الحمى بين اعضاء جسمى . . . ؟ ! »

فأجابنى ببلاهة ؛ ان هذا رأى ليس إلا ، لى أن أسفهه إذا أردت ؛ ثم خرجنامن المطعم وعبرنا ميدان بوتسدام وأنا أنظر إلى كل باب نمر به على أنه المكان المقصود ، حتى انحرفنا إلى طريق جانبى هادىء ، لمحت فى نهايته باب عليه صليب أبيض ؛ فقال رفيقى ها قد وصلنا فهذا مركز الاسعاف فى هذه المنطقة من برلين.

فبدا علىّ شىء من القلق لمحه صاحبي فراح يهون على الأمر من وجوهه جميعها ، ويفهمنى أن هذا العلاج حق من حقوقى وان دفع ثمنه واجب من واجبات المطعم . فأكدت له بأننى لست زبونا طارئاً على هذا المطعم بل انه من مطاعمى المصطفاة المختارة فى برلين . . .

ثم دخلنا المكان ، وراح صاحبي يشرح أغراض بعثته باسهاب إلى الممرض الذى اختفى دقيقة وعاد مع الطبيب . فما أن جلست وفتحت فمى حتى كانت هذه الشوكة الدقيقة قد وثبت



وهناك اكتشفت شخصية ملاحظ المغسل ! رجل متمدد فى الطول ينظر بعينين صغيرتين من وراء نظارة مرتكزة على انفه كأنه استاذ فى جامعة . .

إلى شفتي : فوقفت على قدمي وأنا أشكر الطبيب وأشهد بمهارته. وما ان انتهيت حتى كنت « ومبعوث » المطعم فى الطريق إلى الباب ، ولكننى ما كدت اغلق الباب من ورائى حتى هرع وراءنا الممرض يرجونى أن أسجل اسمى في دفتره . فقلت فى نفسى إن هذا واجبا جدير بالتسجيل . وعندما انتهيت من الكتابة والتوقيع ، سمعت الممرض يسأل الطبيب شيئا ، ورأيت هذا يكتب « ماركان ونصف مارك »

قلت ماذا ؟ أتتقاضون على اسعاف الملهوفين أجراً ؟ قال نعم. ولم السؤال ؟ فلم تنفع المجادلة فى واجبات الحكومات وأصول الأنسانية . وهون على صاحبي بأن هذا المبلغ سأتقاضاه مع الشكر من مدير المطعم عند عودتنا . .

ثم أننا عدنا إلى المطعم ؛ فلم تنفع المجادلة أيضاً عن حقوق الأفراد وواجبات الجماعة . ولم أجد بداً من الاحتفاظ بورقة الأسعاف كتذكار ليس الا ، وعند ما ارتقيت السلم إلى الطابق الأعلى وجدت صديقي ع . . وقد انتهى من كتابة عشرين خطابا؛ حتى عيل صبره من الكتابة والانتظار . . . .

نعود إلى مطعمنا فى ميونخ . . لم يعد بدٌ من الخروج فى هذا اليوم الماطر البارد ولو للبحث عن مقهى آخر أجلس فيه ساعة أخرى إلى إن تشرق علىّ فكرة جديدة .

وفيما أنا بين البابين الزجاجيين ، وقعت عيناى على وجهين عرفت أن صاحبيهما من أبناء الوطن ، ولابد أنهما قد أحسا بهذا الأحساس فابتسم كل منهما ابتسامة طفيفة وسار كل منا فى طريقه . .

وكثيراً ماتثير مثل هذه المقابلة المفاجئة بين المواطنين الغرباء هواجس ما كانت تنبعث من ظلامها لولا المفاجأة ! وهل أقول ان هنالك شيئا « من سوء النية » يثب إلى النفس قبل أن يدع الأنسان عقله يتسيطر على هذا الموقف المفاجىء ؟

ولماذا ياترى تسبق سوء النية العقل والمنطق بين هؤلاء المواطنين الغرباء ! أهو نوع من الحذر الذى يرسب فى نفس الغريب من جراء حياة التجوال أو التشرد التى يعيشها بين أناس لم يجد منهم عطفا إلا بمقدار مايبديه من جاه وغنى عنهم ؟

قابلت مرة قافلة من المصريين الرياضيين فى روما ، وقد تجمعوا بحقائبهم ومعاطفهم ومعداتهم فى أحد مقاهى شارع فيتوريا ، ولقد كانت غبطتى باكتشافهم عظيمة واحسست كأننى قد هبطت واحة بعد رحلة طويلة فى صميم الصحراء !

ولكم كان عجبى عندما وجدتهم قد نسوا حتى أبسط قواعدنا الشرقية فى المجاملة ؛ لقد نسوها بعد حياة أسبوع واحد فى أوربا ؟ لعلهم قد سمعوا أكثر مما يجب عن الحياة الأوربية وعن تفنن النصابين فيها والمحتالين ، فبنوا سياجا كثيفا بينهم وبين كل غريب يهبط بهم ، ولو كان مظهره وحديثه لا يدل على حاجة إلى هذا الحذر الشديد .

طيور الصيف

وإذا هلّ الصيف ينتشر مئات من المواطنين بين أركان أوربا ، لاسيما تلك التى حازت يوما من الأيام رضاء بعض الزائرين . والمصرى بطبيعته ينزح حيث يجد العطف والمجاملة فكثير من المصريين لا يعرفون فى أوربا إلا مكانا واحدا أو ركنا من مكان واحد ، يتوردونه عاما بعد عام دون أن يفكروا فى العالم الواسع

الذى يحيط بهذا الركن . فرواد كاراسبار قلما يعرفون شيئا عن براج أو برلين ؛ وزوار باريس يجهلون لندن وهكذا .

وهذه الطيور الصيفية التى تهبط أوربا من وادى النيل على أنواع . فمنهم اما وجيه يرحل إلى أوربا لأنها جزء من تقاليده الاجتماعية ، أو طالب استشفاء مريض أو متمارض ، ثم يأتى بعد هؤلاء وفود الشباب ؛ الجيل الجديد الذى تعلم فى أوربا والذى يعود إليها بعدئذ يطلب المزيد من العلم أو استثارة ذكرياته القديمة .

« وكافيه دى لابيه » فى باريس لها تاريخها المجيد في حياة كثير من هؤلاء ، تمر على ركنها المشهور الذى يطل على ميدان الأوبرا و بولفار كابسين فلا تخطئك وجوه بعض مواطنينا الوجهاء . يجلس قبالتهم بائع الصحف الذى زين « كشكه » بمجموعة من الصحف والمجلات المصرية وعشرات من هؤلاء الضيوف يذرعون الطريق كل يوم مابين بيكادلى وا كسفورد استريت وهايدبارك فى لندن ؛ تجدهم وقد كلت أرجلهم من السير وعيونهم من التطلع إلى النوافذ التجارية إذ حرمت لندن من متعة المقاهى .

وقد بدا على وجوههم الملل من هذه الحياة الجافة المقيدة ، فلم يجدوا بداً من التلهى بشراء هداياهم وتذكراتهم من لندن .

رطل من البرقوق

كنا جلوسا فى يوم من أيام الصيف تحت ظل شجرة من أشجار القسطل في هايدبارك حديقة لندن الكبيرة . وكان معنا كتاب علمى أخذت أقرأ منه بينما اضطلع صديقى بمهمة التفسير والتعليق . ومن حين لحين كنا نتطلع الى طوائف المتنزهين حولنا.

وفيما نحن كذلك وقعت عيناى على وجه سائر أحسست بأنه غريب بل مصرى ، ونظر هو بدوره الى حيث كنا ، ولكن كما نتبادل مئات النظرات فى مكان مثل هايدبارك دون قصد أو غاية معينة !

ثم انصرفنا إلى القراءة برهة ، و إذا بهذا الصديق الغريب يمر بنا راجعا ولم يتمالك نفسه من التحديق الينا ولعله وقف يستمع لحديثنا عله يميز اللغة التى كنا نتحدث بها . عند ذلك خاطرت ودعوته بالعربية إلى الجلوس معنا . فكان حدسنا صحيحا ! فقد كان هذا الغريب الكريم هبط لندن بالامس وهو فى ثورة نفسية من الوحدة . .

فقدمني صديقي إليه كما قدم نفسه ، ثم عرفنا أن صديقنا هو « فلان باشا » المعروف المشهور بوجاهته ، وقد طمست القبعة هذه الوجاهة حتى بدا الباشا الكبير كأنه مريض في دور النقاهة .

وكان الباشا يحمل وراء ظهره كيساً صغيراً من الورق يبدله بين يديه وهو حائر كيف يتخلص منه . ولما أحس الباشا بأن عيوننا قد كشفت خبيئة كيسه تقدم به إلينا متأثما وهو يفتحه ليخرج ثلاث برقوقات زعم أنه اشتراها ليعرف الفرق بين أنواع البرقوق الشرقي والانجليزي ؛ لا لأن ياتهمها في زكن هادىء من هذه الحديقة . . ! !

مفاجئات

ولا تختم هذه المفاجئات عادة بمثل هذه النهاية السارة ، فقد حدثني صديقي الدكتور ح . . حين كان طالبا في برلين بعد الحرب ، انه ذهب فيمن ذهب إلى البنك ليتسلم مبلغا من المال ، وكان جمع الحاضرين كبيراً حتى انهم انتظموا أمام نافذة الصرف في صف طويل كما يفعل رواد المسارح ، بيد أن تقدم هذا الصف كان بطبيعة مهمة البنوك بطيئاً ، وحدث أن سبقت

الدكتور ح . . فى موقفه سيدة سمينة قطعت عليه الطريق وهو عجل لايحتمل الانتظار ، ولعله أراد أن يفرج عن ضيق صدره بملاحظة بريئة إلى رفيق له عن سمن هذه السيدة وعمّا نبت فى وجهها من آثار الشعر ، وما كاد ينتهى من ملاحظته حتى تلفتت إليه السيدة وصبت على رأسه قدراً كافيا من الكلام المختار فى مثل هذا الموقف . . وبالعربية ؟

وحدث لصديق لنا فى طريقه من باريس إلى تريستا أن زامله مسافر ، حكم على نفسه ألاّ يفتح فمه بخير أو شر فى خلال الرحلة التى دامت ثلاث وعشرين ساعة وصديقنا المصرى يكاد يتميز غيظا من هذه الوحدة القاهرة .

وما أن وصلا إلى حيث نزل رفيقه ، رفع هذا قبعته وحياه بالعربية الفصيحة . . . ؟

تحت المطر

وجدت الشوارع حين خرجت من مطعم ميونخ كما تركتها صقيعة هاطلة ، وقد انتشرت في سمائها المظلات السوداء . والأمطار ليست مما تعوق سائراً فى أوربا ، ولا تمنع سيدة من التلكؤ

بين نوافذ المتاجر ، ولافتاة من المحافظة على موعد غرام تحت المياه الدافقـــة .

ولـكننى لم أطق السير طويلا ، فقد مررت فى طريقى بمكتب البريد فولجته مع الداخلين إلى قاعة دفيئة ممتعة ، احتل مقاعدها الخشبية جمع كبير من الرجال والنساء ، بعضهم نائم ! لاشك أنهم قد هربوا كما هربت من برد ذلك اليوم ومطره .

وكان السيدات الجالسات تقطع الوقت بفتح مايحملن من لفافات الورق لمراجعة ما اشترين من المتاجر ولفها من جديد . كما جلست سيدتان تتحدثان باهتمام وقد اتكأتا باطمئنان على المقعد الخشبى كأنهما يجلسان فى دارهما بجوار المدفأة : لا فى قاعة مكتب من مكاتب البريد . .

ومنذ عامين من هذا التاريخ دخلت هذه القاعة نفسها وجلست زهاء ساعة على أحد هذه المقاعد ، وقد كنت أحزم هدية صغيرة لأرسلها إلى مصر فاستعرت الصمغ والمقص من أحد عمال المكتب ورحت أنثر رشاش الصمغ على المقعد دون قصد وأبعثر هذه القصاصات وأطراف (الدوبارة) حتى استحال المقعد

إلى ركن فى فرقة من فرق الأشغال اليدوية فى مدرسة البنات . . !

لعب . .

وعند نافذة من هذه المتاجر المجاورة وقف جمع كبير من الكبار والصغار وقد رفعوا مظلاتهم على رؤوسهم ـ كان هذا لمتجر مخزناً للعب الأطفال ؛ إذ أن نوافذ هذه المتاجر تجذب أكبر عدد من المتفرجين ، فالآباء يذكرون أطفالهم عند هذه المتاجر ، والأطفال بدورهم يدفعون آباءهم إلى الوقوف معهم واستعراض مستحدثات اللعب .

وتجد من بين هؤلاء رجلا يحدق النظر باهتمام وعناية إلى نموذج لقطار حديدى ينظر إليه بلذة عجيبة ، وتراه يدور حول النافذة ليفحصه من جميع وجوهه . فهذه اللعب « الميكانيكية » تستهوى الرجال أكثر مما تستهوى صغارهم .

ففى أحد أعياد الميلاد فى لندن ، جلسنا فى حجرة المائدة وقد نثر « تونى » الصغير هداياه من اللعب وكانت من بينها طائفة من هذه القطر والآلات ، وراح والده يعرفه بأصول إدارتها وتسييرها ،

وبعد قليل وجدناه ينصرف عنا ويغرق نفسه فى هذا الشرح والتفسير ، ثم إذا به يدفع الطفل لينفرد بنفسه بهذه اللعب والأجهزة ، وقد مد قضبانها وأسلاكها على أرض الغرفة وتمدد على بطنه ، وهو منصرف عن كل شىء إلا هذه اللعب .

ولم تجد مناقضة « تونى » الصغير اذناً عند والده ، وراح يرجونا لنتوسط بينه وبين والده الذى اغتصب حقاً صريحاً من حقوقه ، ولما لم تنفع وساطتنا لم يجد الطفل بدا من الانصراف إلى البكاء والنحيب !

بلد الغريب . .

وهكذا أخذت أقطع الوقت واقتل السأم ، متنقلا بين متاجر شارع كوفنجر ونيوهوزر وباير ، والسير على غير هدى ولا غاية هو كل ما يفعله الغريب ، الذى لم يعقد بعد صلة بأحد أو بمكان .

وفى ساعات الصباح الباكر تجد هؤلاء الغرباء يجوسون خلال العواصم التى ينزلونها ، ويضربون فى شوارعها وطرقاتها قبل أن يستقبل أهلها اليوم الجديد . تشاهد هؤلاء الغرباء فى

الساعة المبكرة يتلكأون على أرصفة شوارع المدينة الرئيسية ، يتلفتون الى كل شىء ، ويستهويهم النظر إلى كل شىء وهم فى ذلك لا ينسجمون مع وفود العمال ورجال الأعمال الذين يهبون فى مثل هذه الساعة الى أعمالهم ، لا يتلفتون ولايتلكأون ، لايكادون يظهرون من منازلهم حتى تبتلعهم الشوارع والميادين فى لحظات . .

أما الغريب فيستيقظ كذلك فى الساعة المبكرة قلقا مهتاجا لا يطيب له نوم أو أنزواء فى غرفة ، وقد بدا النهار يفتح أقفال المدينة التى هو ضيفها ، وما الذى يجعله يحمل آلام الصبر وهو غير مرتبط بقواعدفى نومه ويقظته ، ولا بتقاليدفى خروجه ودخوله ؟ أليس من أجل نعم الغربة والسفر أنها تقطع الانسان عن جميع هذه التقاليد القاسية التى لا يرحم فى تطبيقها أحد ؟ !

وإذا استقبل الغريب الشارع ، تراه يعجب لأهل هذه المدينة الكسالى الذين ينامون الى تلك الساعة ، ولا يبدأون أعمالهم مع الفجر الأول – ثم أليست البركة فى البكور ؟ أتراهم ينامون فى مثل هذه الساعة ، والحياة والطبيعة والشوارع القفراء تدعوهم وهم عنها فى غفوة !

هكذا ينظر الغريب إلى الاشياء ؛ وهكذا تراه وقد خذله تكاسل الناس ينصرف إلى دراسة الشوارع الجامدة ؛ إلى جدرانها وأسوارها واعلاناتها الملصوقة، وأعمدتها المرفوعة، وتماثيلها القائمة ؛ ثم تراه يتنقل من متجر إلى متجر دون تمييز أو تفضيل كأنه كُتب عليه أن يدرس شئون التجارة فى هذا البلد ، وأن يعرف فيم يتاجر هؤلاء الناس وهم بعد نائمون . .

خلف المرآة

وهكذا أخذت أتنقل بين نوافذ هذا الشارع دون تمييز أو تفضيل ، كأنه كتب على كذلك أن أدرس شئون التجارة فى ميونخ ! وأكثر هذه المتاجر تعرض أزياء المرأة أوما يمت بهذه الأزياء من مطالب ؛ وأكثر هؤلاء المتسكعين بين هذه النوافذ من النساء .

و بين هذا الجمع الحاشد من النساء أمام نافذه الازياء ، تجد رجلا واحدا قد لصق وجهه بالزجاج يشاهد بدقة ألوان هذه الأثواب وأزياءها وأثمانها ؛ تراه واقفاً وحده فى مملكة المرأة !

لعله أبله لايكاد يحس بموقفه ، أو لعله صاحب تجارب مع

المرأة فلم تعد تخزيه نظراتها أو تخجله حلقاتها ؛ أو لعله رجل من رجال المادة قد ألهته شئون التجارة ، عن عيون النظارة !

وهذه المرايا التى زينت بها أبواب المتاجر مصيدة لكل امرأة ، فهى لاتكاد تمر على واحدة منها حتى تقف تدقق النظر إلى عينيها ، وترفع يدها بطريقة آلية إلى شعرها كأنها تريد أن تعيد تصفيفه وهى لاتفعل شيئا أكثر من أن تضغط على صدغها !

وأمام نافذة جانبية مغلقة تشاهد رجلا يدقق النظر إلى الأشرطة الباهتة التى تركت فيها شهورا طويلة ، وتراه يرفع أصابعه إلى ربطة عنقه ينظم وضعها ؛ إنها تلك المرآة المختفية وراء الأشرطة وليست الأشرطة هى التى يبحث عنها ، أن رجولته تأبى عليه أن يقف ذلك الموقف أمام المرايا العريضة الواسعة التى زينت بها أبواب المتاجر ، فراح يتصيد ذلك فى خفية .

وفى ميدان كارل وقفت مع الواقفين حول عربة بيضية مغلقة ، من عربات الرحلات التى تشد إلى السيارة وتستحيل إلى شبه كوخ جهز بأدوات البيوت من أسرة ومقاعد

وكان التدافع على رؤية ذلك عظيما ، ويتنافس الناس لا لان مايشاهدون جدير بالمشاهدة ، بل لأنه أصبح موضعا للمنافسة والتدافع . . وأدوات الرحلات وأجهزة الاسفار من أمتع ماتراه فى المتاجر الألمانية .

فى أرض الله

أن حب الالمانى للاستطلاع وقد عرفناه ، هو الذى يجعل الميل إلى السفر والتجوال والا رتحال إلى مجاهل الأرض وغرائب الشعوب متعة لاتدانيها عنده متعة أخرى بجانبها ! وحيثما أنت ترى الألمانى — الشيخ والشاب والمرأة — يحمل حقيبة الظهر الصفراء معلقة بين كتفيه ، حتى أصبحت زيا قوميا من أزياء هـــذا الشعب !

وهو فى رحلاته حريص على اقتناص كل فائدة ترفع رأسها حوله، فهو يدرس ويبحث ويمحص قبل أن يبدأ رحلته ، وهو يدرس ويبحث ويمحص أثناء رحلته، وهو يفعل ذلك إذا آب من غربته !

ومن النادر أن تجد الألمانى يتعشق السفر إلى انجلترا ، أو إلى باريس أو إلى أمريكا ، بل أنه يحلم بالبسفور ، باليونان

القديمة ، باهرام الجيزة و بتماسيح النيـل ، ثم بافريقيا السوداء المظلمة . و بالصحراء التى لانهاية لرمالها وسمائها ! هذا هو الأمل البديع الذى يجيش فى صدر كل شاب المانى ، والذى يسعى إلى تحقيقه بكل ماتتيسر له من وسائل .

على مياه البحر الأسود

كانت الساعة الحادية عشرة مساء . عند ما بدأت الباخرة الرومانية تهجر مرساها فى كونستنزا متجهة جنوباً إلى البسفور ، و بين الجمع الحاشد الذى وقف يشاهد الميناء وهى تبتعد عنه السفينة السارية ، ما كنت لتميز عشرات من الوجوه الألمـانية الشابة التى كانت تروح وتغدو على ظهر السفينة .

حتى إذا تفرق الجمع و بدأ المسافرون يتعرفون أماكنهم ، تجمع هؤلاء الشبـان ـ ثلاثون منهم ـ على ظهر الباخرة حول رجل فى مثل لباسهم امتدت ذقنه البيضاء حيث ربطة عنقه وراح يتحدث بصوت واطىء كأنه لا يلقى سلسلة من الأوامر والنواهى والزواجر !

وما أن انتهى حتى اندفع كل واحد منهم يحل أمتعته

المعلقة على ظهره ويفرش ظهر السفينة الأجرد إعداداً للجلوس والنوم ، ثم بدأت أصوات الملاعق والأطباق المعدنية ترن فى هواء الليل فقد بدأ كل واحد يعد طعام العشاء وقد جلس كبيرهم فى وسط دائرة كبيرة يفعل مايفعلون .

كان هؤلاء جمعا من طلاب الصحافة فى احدى الجامعات الألمانية الجنوبية ولعلها كانت ميونخ ، وكان هذا أستاذهم ، يقودهم الى رحلة فى اسطنبول ثم الى أثينا .

حتى اذا فرغ الجمع من العشاء وردت الملاعق والأطباق إلى مكانها ، بدأت الكتب والدفاتر والأقلام تجد طريقها إلى أرض المكان الذى فرش بالأغطية الصوفية . وراح كل واحد من هؤلاء الصغار يتمم قراءة كتابه ، أو يراجع ما كتبه أو يدون ملاحظات فى دفتره .

وما أسرع أن عقدتُ الصلة ببعض هؤلاء وجلسنا فى أعلى السفينة نتحدث ونتساءل وأجيب على عشرات الأسئلة التى كانت تلقى علىّ حتى قارب الفجر الوضوح . ففى دفتر من هذه الدفاتر ثمة تذكارات لكل شيء منذ أن ترك هؤلاء جامعتهم حتى

ذلك المساء ؛ وجدت تذاكر الترام وقصاصات الاعلانات و بقايا أوراق السفر وطوابع البريد ملصوقة فى هذا الدفتر ، وذيلت بالملاحظات والأعداد من أثمان ومواقيت وأبعاد ومسافات .

ولم يكن يخلو جيب مسافر من هؤلاء الشبان من كتاب من كتب الرحلات الألمانية المعتمدة ، وقلما تجد كتاباً من هذه الكتب خلوا من العلامات والخطوط والملاحظات المدونة على هوامشه ، التى تدل على أن هذه الصحائف قد قرئت المرة بعد المرة ودرست دراسة مذكر حريص .

اسطنبول

ثم أقبل النهار وانتصف ، ووقفت بنا السفينة تحت أقدام اسطنبول ، ووقف هؤلاء الشبان صفاً يحملون أحمالهم على أكتافهم وتقدمهم أستاذهم بقميصه المشمر عن أكمامه وسرواله المنعقد عند ركبته ، حتى خلفوا السفينة فى وحشة مقبضة .

ثم إننى خرجت بعد الظهر أتفرج على اسطنبول الخالدة ، واحتسى من ألوان شرابها المثلوج ، والتهم من حلواها البديعة بعد

أن قضيت شهورا فى شمال أوربا . ثم إننى بعد أن أرضيت هذه الرغبة كان أول ماشاقتنى زيارته جامع أيا صوفيا العظيم ، فجست خلاله وطفت باركانه وصليت تحت قبته ؛ وفى زاوية سحيقة منه وجدت وجوهامعروفة، منكبة على أوراق وخرائط ودفاتر فرشتها على أرض المسجد ؛ و إذا بهؤلاء رفاقنا فى البحر جاءوا يدرسون لا ليتفرجون ، وينقبون لاليلهون . فقد قضوا فى هذا الجامع وحده ساعات منذ أن هبطوا المدينة وهم يتذاكرون على هذا النسق كأنهم يعدون العدة لامتحان ، أو كأن قصة أياصوفيا تعنيهم جد العناية فالهتهم عن كل شىء حتى عن المدينة نفسها التى تحوى أياصوفيا . .

ولكن هكذا يرى الناس السياحة ، وهكذا ينظر الناس إلى الاسفار التى قال فيها الشاعر العربى القديم ، أن لها خمس فوائد لاتزيد ولا تقل ، وكأنه قدرها بميزان لايخطىء ولايزل !

لم يعد يجدى هذا التجوال بين المتاجر إلى غير غاية !

وهاقد حبست السماء ماءها ، أو لعل هذا الماء قد تبلور حيث هو من شدة برد ذلك اليوم .

وقد كان السير فى ميدان كارل الواسع جهادا شاقا مع الريح التى كانت تنفذ إلى الأطراف والأكتاف . ولماذا لانقضى هذا الوقت من النهار فى دار دفيئة من دور السينما لاسيما دور السينما المحلية الصغيرة التى لاتكون فى مثل هذه الساعة مزدحمة إلا بالنساء العجائز والأطفال ممن لا يجدون مايعملون فى منازلهم فى مثل هذا الوقت .

وهكذا أخذت أقرأ ما كتب على عمدة الاعلانات وأخذت أذرع هذا الشارع الواسع بخطى عجلى سريعة ، فما وجدت فى تلك الساعة الباكرة دارا مفتوحة ، فدور السينما فى ألمانيا تفتح وتغلق فى أوقات معينة ، وليست كما عرفناها فى إنجلترا متعة لاتقيد بوقت ولا بساعة محدودة .

وهكذا ساقنى التجوال إلى ميدان المحطة حيث كنت صباحا ، فحمدت الله الذى جعل لتطوافى هذا حدا وغاية ولو إلى حين . ولم أكن أرغب فقط أن أبدل منظر هذه الشوارع المتكرر بالحياة المتجددة التى تفيض بها هذه المحطة العظيمة ؛ بل إننى كنت أسعى بخلاف ذلك إلى جلسة هادئة لألتهم جانبا

مما كنت أحمل فى حقيبتى الصغيرة من العنب ، الذى استهوانى منظره وقد كوم أكواما تحت أشجار كارل بلاتس وقد غسلته مياه المطر وثلجه صقيع ذلك اليوم ، حتى أننى لم أكن لأعرف له طعما معيناً ، لشدة فعله باللسان والأسنان . وكنت أحمل عدا ذلك ربطة من التين المجفف !

لذلك كنت فى طريقى الى المحطة تدفعنى هذه الدوافع جمعاء فنسيت فى تلك الساعة الذهاب الى دار السينما .

فى ظلام السينما

ليس هنالك فى انجلترا مكان كدور السينما يجمع الغريب بالغريب ويعطف على الشريد ، ففى ظلامها الذى لايبدده فجر صادق ولا كاذب يجد المجهد التعب ركنا يسبل فيه عينيه و ينام فيه ملء جفونه ، دون رقيب غليظ يحاسبه على دورة الزمن .

وكنت إذا هبطت لفربول أو برمنجهام فى اليـوم الممطر ، أهرع إلى احدى هذه الدور التى تفتح أبوابها منذ الظهيرة لأحتل مقعدا فى مقابل بنسات لاتزيد عن الستة عددا ، عدا ماأستحله لنفسى من مقاعد أنشر عليها معطفى المبلل وأوراقى وحقيبتى

وقبعتى ، وأشاهد القصة المعروضة حتى أمل وأنام ، وقد أبدأ بخاتمتها السعيدة أو المحزنة ،لأعود إليها بعدساعة من جديد دون أن أجد فى ذلك غصاضة أو ضجرا .

وأى مكان يتسع لأحاديث المشاق أكثر من هذه الدور النهارية للسينما ؟ وأى مكان يتسع لثرثرة عجوزين لا تصمتان ، تعقبان على القصة بالقصة والحكاية بالحكاية كأنهما شهر زاد ، أكثر من هذه المقاعد المهجورة المظلمة فى وقت الظهيرة ؟

وكانت صديقتى العجوز مسز هيوز تعرج فى طريقها من السوق بعد الغذاء ، وقد حملت أكياس الفاكهة واللحوم والخضر الى إحدى دور السينما فى شارع كامدن تاون قتلا للوقت وهرباً من الوحدة والسأم ، حتى ساعة الشاى وعودة زوجها وأولادها و بناتها من أعمالهم ومن مدارسهم . .

والغرام الانجليزى يتلخص فى خطوتين ، لقاء فى مشرب من مشارب الشاى ثم دعوة إلى أقرب دار من دور السينما الرخيصة . وقد تسبق الخطوة الأولى الثانية فيكون اللقاء على باب من أبواب هذه الدور . وتختم القصة بدعوة إلى فنجان

من الشاى وقطعة من الجبن أو الكعك فى مشرب من مشارب الشاى الزهيدة . .

ولكن ليست للسينما فى أوربا هذه الروعة ــ روعة البساطة التى لها فى انجلترا ، فقد قيدت بالساعات والدقائق وضيق الخناق على روادها ، فارتفعت أثمانها حتى أصبح الفتى يفكر فى الذهاب اليها ويحاسب نفسه عن مقدار ما ينفق وما يدفع ! وإذا فكر العاشق فى شئون المال كره كل ما يذكره بعجزه ، وهكذا هذه الدور الغالية فى المانيا وفرنسا . .

المحطة ثانيا . .

محطة ميونخ كعهدى بها كل يوم ، من أكثر محطات أوربا ازدحاما وعظمة ، لاشك أنها أروع من سان لازار وجارد ليون فى باريس وفكتوريا ووترلو فى لندن ، بل انها أعظم من انهالتر محطة برلين الكبيرة .

العالم كله يتمثل فى هذه المحطة ، ومتاجر البيع والعرض بأنواعها تراها مصفوفة على جوانب طرقاتها ، ثم المطاعم ومشارب القهوة والشاى واللبن والجعة ، ثم المكاتب ومخازن المجلات والصحف

والبطاقات والهدايا ، ثم مخازن التبغ والسجاير وما اليها ، ثم قاعات الجلوس والحمامات ...

وفى هذا العالم الصاخب ولجت أحد أبواب هذه المحطة وأنا أنتفض من البرد وقد ثلجت أصابعى من المشى والتجوال بحثاً عن دار للسينما . ثم اننى انتحيت مكاناً قصياً فى طرف من أطراف المحطة وجلست على نافذة مقفولة وفتحت حقيبتى. وأخذت أرسل أصابعى إلى قرطاس العنب أقتنص حباته واحدة واحدة ، وأنا أرقب طوائف الغادين والرائحات .

حتى إذا انتهيت واغتسلت رجعت إلى بهو المحطة الأوسط ، أقرأ اعلانات الصيف إلى جبال بافاريا وقد بدت صورها المضيئة فاتنة تستهوى النظر ، وفيما أنت تحدق النظر ينفتح الباب فجأة ويدخل رجل وزوجه يرتعشان من البرد وقد بللهما المطر حتى تسرب ماؤه من المعاطف إلى الأكتاف ومن الأحذية إلى الجوارب ، ترى هذا الرجل المبلل المرتعش وتنظر إلى صور الجبال المنيرة ، فتحس بانها تكذب عليك فى هذا الوقت من العام ، تحس بانها الآن موحشة كالظلام ، وتدوى فيه العواصف كصرخات القتيل !

ليس أكذب من اعلانات السياحة !

هذا المصور كيف يرضيه ضميره أن يحيل هـــذه الأكواخ وهذه الحقول بأعشابها وأشواكها وهذه التلال بأحجارها وحصاها ، كيف له أن يحيلها إلى جنان وارفة و إلى عالم سحرى عجيب ؟

إن هذا العالم الذى يصوره تجار السياحة فى إعلاناتهم عالم ليس له شبيه ولا مثيل على الأرض ، إنهم يخلقون من لاشيء قصصا وحكايات .

فصخور كورنوول الجرداء القاسية يدعونها بفردوس الوحدة واللانهائية ؛ ورمال المغرب السافية يدعونها بعالم الخلود السحرى؛ وأكواخ القرية الفقيرة المعدمة بأنها سر من أسرار الجمال التى لاتتفتح إلا لمن حباهم الله بالخيال الواسع ، ثم قوارب الصيد الجائمة إلى المرفأ تبدو كأنها أسراب من البجع البديع ؟ !

وهذا السائح المسكين الذى يقلب هذه الصحائف الفاتنة يعيش بينها ساعة فى عالم من الأحلام ؛

وأنا لا ألوم المصور المسكين فلعله عاجز عن أن يصور سافيات

الصحراء وجمود الصخر العابس ، ورائحة السمك القاذعة التى تنبعث من قوارب الصيادين التى بدت كأنها أسراب البجع الأبيض السمارى !

والسائح الجوّال كالمقامر الذى لاتزيده خسارته إلا تعنتاً وصلابة فى البحث عن المكسب المضاعف ! فما دامت هذه اللوحات الجذابة فى وجهه أينما حلّ ، فهو لا يهدأ له قرار ولا تموت فيه هذه الجذوة المتقدة ، هذه الرغبة فى النزوح إلى ذلك العالم السحرى !

فاذا وقفت على البحيرة عند لوزان حيث يجتمع جمال الطبيعة من جبل ومن ماء ومن زهر ، ترى بودابست فى صورتها الفاتنة فتحس بأن لوزان لاشىء ؛ وهناك فى جزيرة سان مرجريت مابين بودا و بين بست ، الجاثمة فى وسط الدانيوب ، تهزك صورة البندقية وتشعر بأن مياه الادرياتيك أفعل سحراً من مياه الدانيوب ، وأن قناطر بودابست لاشىء بالنسبة إلى عظمة البندقية الخالدة . .

وهناك فى البندقية تحت جسر الدوق تحس بأن هذا السحر قد رُفع عن عينك ، فاذا بمياهها آسنة جارية كمياه الأرض جميعها

وأن قناطرها من الحجر الجامد الذى براه البحر ؛ ترى كأن عروس الدانيوب قد أصبحت امرأة ككل امرأة تقابلها فى الطريق — وهكذا تهيج فى نفسك رغبة النزوح إلى النرويج وإلى جولات الفيورد العظيمة ، أو رغبة الرحيل إلى الشرق إلى ضفاف النيل المقدس أو الى الهند ذات الاسرار الأبدية ، نعم ان الأرض لتضيق بك ، بل ان هذه الصور الفاتنة لتجعل هذا السحر يستحيل إلى مرض كأمراض المخدرات المستعصية . .

ولا يكتشف السائح المسكين إلا بعد حين ، أن هذه الرغبة فى البحث عن نواحى العالم السحرية ، ماهى إلا حلم ككل أحلام الحياة ؛ ولعله عندما يصل إلى هذه الدرجة ، عندما ينظر الى العالم كأنه جالس على قمته ، تستحيل هذه الرغبة الجامحة إلى فلسفة أو نوع من أنواع الصوفية !

شارة الحصاد

لم تكن إعلانات الرحلات بين جبال بافاريا هى كل مايستهوى النظر أو الذكريات فى محطة ميونخ فى ذلك اليوم — اليوم الأول من شهر أكتوبر الفائت ، بل كانت ميونخ نفسها تحتفل بعيد من أعيادها ، وكانت محطة ميونخ كذلك تستقبل موسما جديدا .

أما عيد ميونخ يومئذ فكانت عيد الحصاد . .

وأما محطة ميونخ فكانت تستقبل موسمها الجديد ، حيث تبدل مواعيد قطرها فى مثل هذا اليوم من كل عام ، فجلس بائعو الجداول الجديدة فى أركان المحطة ينادون على بضاعتهم ، ويذكرون الناس بخطر خلف المواعيد وفوات القطر . .

أما عيد الحصاد فتستقبل فيه هذه البلاد الألمانية الزراعية موسمها الجديد ، فيحملون فيه سنابل القمح الصفراء الذهبية على صدورهم فرحا واستبشارا فقد وصلت القافلة الى نهاية المرحلة فلم يبق من شيء إلا الجنى والحصاد . . ! وما أبدع أن يحمل الانسان شارة تدل على أن أملا من آماله قد تحقق ، أملاً ما قد تحقق ولو كان هذا الأمل غير مايسعى إليه هو أو يفكر فى اقتناصه ! !

وليس عيد الحصاد مما يتميز عن غيره من الأعياد عند الألمانيين بمثل هذه الشارة ، فالشارات بدعة ألمانية عريقة . .

قص علينا صديقنا الشاب الهر جو بنجر فى معرض حديث عن أنواع الشارات ودرجاتها ؛ إن رجال الشرطة وجدوا مابين الحدود الألمانية والنمسوية رجلا مقتولا ، فلم يعرفوا الى أى البلدين

ينتمى ، إذ ما كان يحمل فى جيوبه إسما ولا علامة . وبينما هم فى حيرتهم تقدم فلاح إلى سترة القتيل وفحص ثنيتها بدقة وقرر بأن هذا القتيل ألمانى الجنسية .

وهنا سألنا الهر جو بنجر كيف توصل هذا الألمانى البسيط إلى حل هذه المشكلة التى عجز عنها رجال الشرطة ؟ إذ لم يكن جوبنجر يروى لنا رواية بل كان يختبر ذكاءنا على ما اعتقد . فلم يجبه على سؤاله أحد اللهم إلا تفكها بقصد المداعبة .

أما كيف عرفت جنسية الرجل فذلك لأن ثنية سترته قد وجدت كثيرة الخروق من أثر ما كان يعلق فى هذه الثنية من الشارات الكثيرة العديدة ، التى لا يحملها على صدره بمثل هذه الكثرة إلا الألمانى . . وكانت الدعاية مستملحة والملاحظة ظريفة ، ولكنها على كل حال صريحة صحيحة . .

فالألمانى لابد وأن يكون عضوا فى حزب وزميلا فى رابطة ومساهما فى هيئة من الهيئات ، وكل من هذى بطبيعتها لها شارتها الخاصة ، فيحملها جميعا بعضها بجانب البعض . . . . . والايطالى قد اقتفى اليوم أثر هذه البدعة ، إذ لا تجد فى ايطاليا

رجلا لايحمل شارة تدل على أن حاملها إيطالى أو فاشستى . و إذا كنا نفهم معنى ذلك والايطالى فى غير موطنه ، فما معنى أن يلبس الشعب بجماعه من الشارات مايدل على أنه ينتمى إلى هذه الجنسية ؟

وفى أيام الألعاب الأولمبية الأخيرة انتشرت هذه الشارات الدولية فى ألمانيا ، وراحوا يبيعونها فى الطرقات العامة وفى مخازن الصحف ودكاكين الهدايا . و إذا لاحظت الشارات الناقصة من المجموعة المعروضة فانك تكتشف مدى إقبال بعض الشعوب الزائرة على الظهور بمظهرها القومى . و بعض هذه الشارات التى تمثل أعلام الدول معروفة فى كل مكان ، فليس من يجهل الهلال والنجوم رمز مصر ولكن من النادر أن تميز الشارة المجرية أو البرتغالية أو البرازيلية وغيرها من عشرات الدول التى ليس لها الشخصية والانفراد الذى لمصر . وترى الألمانى المستطلع يقترب إليك ليميز ألوان الشارة التى تحملها فيخلط ما بين العلم المصرى والتركى ، ثم يسر باكتشافه إلى زوجته التى تحملق إليك فتصل إلى أذنيك هذه الملاحظة الخاطئة ، التى ليس لك أن تتداخل فى إصلاحها .

والانجليزى أقل الناس ميلا إلى حمل مايدل عليه من شارات وأعلام ، وقلما تجد على ثنية سترته رمزاً من هذه الرموز ، اللهم إلا وردة كبيرة أو باقة كاملة من الأزهار البرية والحشائش ، ليس فيها ذوق ولا جمال. وليس معنى ذلك أن الانجليزى لايتيه بجنسيته كما تتيه شعوب أقل منه موضعاً للتفاخر ، بل لعله يشعر أن هذه الشخصية الانجليزية لاتحتاج لتمييزها إلى مثل هذه الشارات والعلامات . . !

المساومة

وفى وسط القاعة تقدم إلى رجل ممن يبيعون شارات الحصاد يومئذ ، تقدم إلى من الخلف فلم أشعر به إلا بعد أن عرض على شاراته المصنوعة من السنابل الناضجة ، وقد تدلت منها أشرطة حريرية ملونة .

تقدم إلى فجأة على هذا النحو ، قبل أن أقرر رأيا بشأن هذه الشارات ، فإذا كان سلبا تحاميت الاقتراب من هؤلاء العارضين ، وإذا مررت بهم أسير عابساً منصرفاً إلى نفسى كأننى غارق فى بحر واسع من التفكير ، أما إذا كان رضاء وقبولا نهجت غير هذا النهج

فابتسمت إلى الرجل ، كأننى أشكر له هذه العناية بشخصى الضعيف ، ومددت يدى إلى جيوبى أتخير منها قطعة تتناسب مع هذا الموقف إذ ليس للشارة ثمن معين مضروب ، وإلا لهان الأمر — ولكنها تركت كأجور الحلاقين إلى جود الزبائن ، ولما كان الجود من الموجود كما يقولون فلم أكتشف فى جيوبى وقتئذ إلا قطعاً مبعثرة من الفنشات ، جمعتها ووضعتها فى صندوق الرجل معتذرا ورافضا نخر حمل شارة من هذه الشارات ، إذ أن قيمتها أكثر مما نفحت . وقد خفت أن أخرج الورقة الباقيـة ذات الماركات العشر لأقتطع منها ثمنا لهذه الشارة فيسرع الرجل إلى دسها فى الصندوق المغلق بلها أوتبلها ، وينتهى بأنه ينحنى إلى تعظيما ويلبسنى الشارة فى وسط الجمع ، الذى يتكأ كأحولنا بطبيعة الحال حتى يستحيل الاحتجاج ويصعب التراجع بعد كل هذا ، وتضيع الزخيرة الباقية فى لمحة بصر . . !

ولم تنته قصة شارة الحصاد عند هذا ، إذ أننى بعد جولة بين أفنية المحطة فككت فى خلالها هذه الورقة ذات الماركات العشرة ، تقدمت إلىّ فتاة من بائعات شارة الحصاد — أو لعلى

تقدمت إليها ومهدت لها الطريق إلى مهاجمتى على هذا النسق — فأخرجت لها قطعة فضية وجعلتها ترن رنيناً فى صندوق التبرعات .

وكانت الفتاة رشيقة بارعة عمدت إلى تثبيت واحدة من هذه الشارات الرقيقة على سترتى ، بين همس الواقفين وابتساماتهم .

وما اشد موقف الأجنبي حيال هذا ! فاذا لبس هذه الشارة الوطنية وراح بها مزهواً فخوراً ، لايعدم من يدحجه بنظرة قاسية و يرميه بالملق والرياء والمداهنة ، إذ ما باله يسبق المواطنين إلى أداء واجب من واجباتهم و بعضهم لايحمل مثل هذا الشعار .

و إذا رفض قبول هذا الشعار ولو برفق وأدب ولين . لايعدم من يدحجه بالنظرة القاسية العنيفة ، ومن يرميه بلؤم الطبع وخسة النفس ، وجهل بأبسط أصول المجاملات .

بيد أنى اتخذت بين هذا وذلك طريقا ، فانزويت فى ركن من أركان المحطة حيث خلعت هذه الشارة ووضعتها خلف ثنية السترة يبدو جانب منها ويختفى أكثرها . .



عيد الحصاد

كانت الساعة الثالثة عندما خلفت محطة ميونخ ، وبدأت أجوب من جديد شوارع المدينة تحت موجة جديدة من المطر ، فمررت فى طريقى بفندق ك .. وقد وقف أمامه رتل من السيارات وسيارة كبيرة تحمل عشرات الحقائب ، فأخذنى العطف وأنا أشاهد وجوه هؤلاء السائحين وهم يندفعون من سياراتهم إلى باب الفندق تحت وابل المطر وقد فجعهم هذا اليوم العبوس فى رحلتهم.

وكثير من المتشائمين لايقضون رحلاتهم إلا تحت المطر وفى الضباب الخانق والعواصف العنيفة ؛ تمر عشرات الأيام والشمس تشرق وتغرب كأنها على موعد مضروب حتى إذا جاء الأسبوع المنشود الذى يرقبونه عاما كاملا ، لم يخنهم تشاؤمهم فيقضون رحلة البحر يعالجون رءوسهم وبطونهم من دواره ، ونزهة الريف وراء زجاج نوافذ فنادقهم يرقبون البرق الخاطف والرعد القاصف . ويرجعون إلى بيوتهم بحقائبهم مصفوفة مرتبة لم تمس أيديهم قبعات الصيف ولا ألبسة البحر ولا آلات التصوير !

انهم يشعرون بهذا النحس فى قرارة صدورهم ، فيرقبونه بثقة وطمع ، وتحقق لهم الأقدار اللاهية هذه الرغبات ! !

وقد يكابر الشباب ، وقد يحاول مجاهدة هذا النحس ، ولكن الطبيعة لا تريد إلا اعنادا ، فتلطخ السروال الصيفي الأبيض بأوحال الشارع ، وتغرق حذاء الفتاة الأنيقة بماء المطر ، وترسل سهام البرد إلى ظهرها فتكرهها على أن تغطى مواضع حسنها وفتنتها . .

قرار جديد

ليس لى الآن إلا أن أبحث مرة أخرى عن دار للسينما فهى الملجأ الواحد فى هذه الساعة المنحوسة ، فتخيرت داراً معينة شاءت ألاّ تكون إلا فى طرف المدينة الآخر ، فأسرعت الخطى حتى كأننى أركض ، فأحسست بدفء وراحة وشعرت بأننى فى فى مهمة من المهمات أو واجب جدير بالمحافظة عليه ، فسرت لا ألوى على شىء ولا أتلفت . حتى إذا ماوصلت إلى حيث هذه الدار ، وجدتها منفردة يحيط بها فناء واسع وتصعد إليها مدرجات عريضة واسعة كأنها معبد من المعابد أو دار للابرا .

ولم يكن فى هذا الفناء الواسع من غادٍ أو رائحٍ ، فالمطرقد أصبح أشد عنفا من قبل ؛ ومن بعيد لمحت الجالسة خلف نافذة

الذاكر المضيئة ترقبنى بعناية خاصة ، إذ لم يكن أحد سواى فى هذا الفناء الواسع ، ولعل احداً لم يقترب من الدار منذهنيهة ، فاخذت ارتقى الدرجات كأننى متهم يقترب من منصة العدل .

ثم إننى لم أحتمل هذه العيون الرقيبة الفاحصة ، فاختفيت حول عمود من أعمدة الدار كأننى استعرض الصور والاعلانات التى لصقت عليها ، ولكننى كنت أنظر خلسة إلى قائمة الأثمان المعلقة على رأس النافذة المضيئة . .

فاكتشفت أن مابقى من المقاعد الخالية لايقل أجره عن ماركين كاملين ، ثم عددت مابقى من النقود الألمانية ، واستذكرت ما أنا راغب فى شرائه من حاجات السفر فرأيت أن من السفه أن أبذر هذا التبذير ، بل أننى عجبت لنفسى كيف ساورتنى رغبة الذهاب إلى السينما ؟ وهل كان ينقصنى أن أسافر إلى ميونخ لأشهد فلما من الأفلام ؟ أليست دور السينما فى كل مكان ، وهل كنت يوما من روادها المخلصين ؟

إننى لم أقرر فقط فساد هذه الرغبة ، بل أخذت أعنف نفسى لهذا الالتواء فى التفكير ، ولعل ذلك لكى أزيد نفسى

يقينا بأن دفع قنش واحد فى سبيل السينما فى هذا المأذق المالى الذى كنت به ضرب من السخف ! وهكذا كان .

ثم إننى نظرت إلى ساعتى فوجدت أن نصف ساعة كاملة أو يزيد قد انقضت فى هذا البحث وهذه المناظرة الفكرية ، فشعرت بأننى اختلست هذا الوقت اختلاسا ، فاحسست براحة ورجعت أدراجى إلى المدينة

ولم أجمع الرأى على هذا فقط ، بل أننى قررت أيضا الامتناع عن شراء هدية ما من تلك الهدايا التى سبق أن رأيت أن أحملها معى من ميونخ . وهكذا وجدت فضلة من النقود الألمانية ما كنت أحصل عليها ، لولا هذا القرار المالى الحازم . . .

عدة السفر

ولعله ابتهاجا بهذا الحل الموفق عرجت فى طريقى على أحد محلات الحلوى المنتشرة فى طريقى ، واشتريت قالباً ضخما من الشوكلادة لأحمله زاداً لى فى رحلتى الطويلة هذا المساء ، من ميونخ إلى مياه الادرياتيك .

وهذا النوع من الشوكلادة من أمتع الأطعمة عندى ، وله

أطيب الذكريات مذ كنت طالبا فى لندن منذ عشر سنين . فقد كانت حقيبتى لا تخلو من قالب ضخم من هذه الحلوى ، أستعين بها على حضور المحاضرات الطويلة المتعددة ، والجلوس فى مكتبة الكلية الساعات الطويلة أراجع وأستذكر وأكتب .

وقد كانت محاضرات صديقنا القديم الدكتور كيلنج فى المنطق لا تبدأ إلا الساعة الخامسة ، وحدث فى شهر رمضان أن كان موضع الافطار فى منتصف هـذه المحاضرة التى تستمر ساعتين ، فكنت أجلس فى مؤخرة التخوت وأفتح حقيبتى وأنحنى مختبئا فى غطائها المفتوح والتهم جانبا من هذا القالب بنهم يستحيل كل ليلة إلى صداع مفزع . ولا أعود اليوم إلى التهام هذا النوع من الحلوى دون أن أذكر محاضرات المنطق ، وكلية بركبك والدكتور كيلنج ، نعم أن هذا جميعا قد ارتبط بهـذه الحلوى ويالها من رابطة عجيبة ...

ثم عرجت على مخزن وولورث لأجول فيه جولة ختامية قبل أن ابرح المدينة ولأشترى ما قد نسيته من حاجات السفر . وإذا دخلت أحد مخازن هذا المتجر العالمى ، ذكرت ولا شك شيئا نسيته

وما أكثر ماينسى المسافر وما أكثر ما يظن المسافر أنه فى مسيس الحاجة إليه ، إذاما رآه معروضا فى مكان كوولورث ؟ !

وبين آلاف المعروضات الرخيصة المنثورة على المناضد المضيئة ، لم أشعر بحاجة إلا لشراء ربطة من مناديل الورق الملون ثم معجون للحلاقة ؛ بعد أن ترددت أمام كل شىء مررت به حتى أمام قلانس الرأس التى كنت فى أشد الحاجة إليها ، بعد أن فقدت قانسونى فى رحلتى الأخيرة من الأسكندرية إلى مرسليا .

أما هذه المناديل الورقية التى اشتريتها فلم تكن لى بها حاجة فى رحلتى ، وليست هى بالشىء النادر العجيب الذى لا أجد له شبيها فى مصر ؛ أما معجون الحلاقة فكان آخر ما أفكر فى شراءه لأن ما معى كان فيه كفاية شهرين كاملين . وهكذا كان حرصي الشديد فى الاختيار والمفاضلة جعلنى أبحث عما لا رغبة لى فيه واشترى ما أنا أزهد الناس فى شرائه !

شاى الساعة الخامسة

إقتربت الساعة الخامسة !

وآن الوقت لجلسة هنية بين أقداح الشاى ؛ جلسة دفيئه

مريحة تصدح خلالها الموسيقى الـكلاسيكية القوية !

لست أقبل على شيء بلهفة كما أقبل على احتساء قدحين أو ثلاثة من أقداح الشاى فى مثل هذه الساعة ، بعد يوم مجهد كهذا اليوم ؛ ولست ممن يستمتعون بالموسيقى الـكلاسـيكية إلا فى مثل هذه الجلسة ، وقد بدأ الشاى يفعل بالأعصاب المهدودة فيخلقها من جديد فتستريح النفس للانصات إلى الموسـيقى التى ترفعها من جمودها وخمودها إلى الحياة النابضة .

ولعل أمتع قدح شربته من أقداح الشاى فى ليلة مثل هذه الليـلة ، وكان المساء بارداً شديد الريح حتى لم يبق زائر على شاطىء البحر عند كلفتن فل أوسوث أند حيث كنت أقضى الصيف فى جنوب انجلترا ، وقد قضيت ذلك اليوم مع صديق عزيز لنا على رمال الشاطىء مجاهداً مع أمواجه على غير معرفة بأصول السباحة . حتى إذا أقبل المساء شعرت بأننى مجهد جد الاجهاد وجائع قد أنهكه السغب

وهناك فى مطعم للسمك كنت أمر عليه كل ساعة فى كل يوم جلست خلف النافذة المقفـلة ، التى عجزت الرياح الغاضبة عن

العبث بصلابتها ، نخلفتها فى الشارع تصفر وترعد ، جلست لألتهم طبقاً من فاخر السمك كان أمتع ما أكلته ، ولأشرب قدحاً من الشاى كان أنخر ما شربته ؛ ولأشعل غليونى فكان أمتع جلسة عرفتها ، لقد كنت أشعر بان الكمال الانسانى قد تمثل فى شخصى ، وأن سعادة الأرض قد هبطت على كتفى ! !

هذا هو القدح من الشاى، الذى أحسست بان رغبتى فيه كانت هذا اليوم البارد المطير رغبة حقيقة !

فير ستنهوف

وفى مشرب فيرستنهوف الفاخر ، جلست لأنعم بكل هذا بالدفء والراحة والموسيقى و بالشاى الساخن ؛ ولكننى بعد كل هذا لست أدرى كيف أننى قد طلبت فنجانا من القهوة ! لقد كان ذلك نوعا من الشرك والكفر بنعمة العقل . .

لم يكن مشرب فيرستنهوف بالمقهى الذى ساقتنى اليه الصدفة المحضة ؛ وليس فير ستنهوف بالمقهى الذى إذا طرقته مرة نسيت أن تعرج عليه كلما ساقتك قدماك إلى ميونخ .

ومع ذلك فاننى استعرضت مقاهى هذا الحى جميعها ، أفاضل بين مقاعدها وزينتها وموسيقاها وضيوفها وأثمانها .

هذه القاعة الواسعة العظيمة وجدتها اليوم كما عرفتها فى العام الماضى فى مثل هذا التاريخ ومثل هذه الساعة . فالكراسى الجلدية الحمراء التى تفيض ارستقراطية ، وإن لم تعمل على راحة الجالس ، تبدو كأنها قطع من الخزف أو تحف فنية وضعت لتزيين المكان .

ومن سقف القاعة تدلى نجف متوهج كأنه الشهب العظيم فى طريقه من السماء إلى الأرض . وفى وسط القاعة أعدت منصة الفرقة الموسيقية بزخارفها الكلاسيكية التى تنسجم مع ما ينبعث من هذه المنصة من ألحان وأشجان .

وما أن جلست فى ركن القاعة على بضع خطوات من منصة الموسيقى — وفى المكان الذى جلست فيه من قبل — حتى شعرت بأن المكان كما عرفته فى الماضى لم يتغير قليلا ولا كثيراً ، وكأننى كنت أتردد عليه فى خلال هذا العام يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت العين لا ترى فيه جديداً يدعو إلى الاستطلاع أو العجب . أن هذه المحافظة نوع من الكبرياء والثقة بالنفس .

وكانت المشاجب زاخرة بما عليها من مئات المعاطف والقبعات

والمظلات وما يتبع ذلك من حقائب صغيرة أو لفافات ؛ وجلست الفتاة التى تحرس مستودع المعاطف تقرأ صحف المساء وتستمع إلى الموسيقى دون أن تنزعج حين يمر عليها الداخل من الباب الزجاجى المجاور مبلل المعطف والقبعة ، وهو مع ذلك لا يتلفت إلى مخزنها الواسع الذى صفت فيه عشرات المشاجب التى كان أكثرها فى تلك الساعة فارغاً !

وكان المشجب الذى بجوارى محملا بعشرات من هذه المعاطف والقبعات المبللة ، وكانت جلستى بحيث لا تجعل الزائر يستعمل هذا المشجب إلا إذا دار حوالى أو استأذن منى ، وفى كثير من الأحيان كنت أقوم بهذه المهمة من إيداع أو استخراج قبعة معينة أو معطف خاص من بين هذه الأكوام من المعاطف .

حكايات الشاى

وجلس إلى جانبى — والحقيقة أننى الذى جلس — شاب طويل مهضوم البدن له شعر أحمر فى صحبة فتاة تتناسب معه طولا وعرضاً ؛ مع ما كان يبديه من البلاهة ، التى أخذتها عليه من ملاحظات سخيفة وصوت ناعم وعين مترجرجة وانصراف عن كل شىء الا من الحديث . ولعلى أردت أن أحكم عليه هذا الحكم

لشيء فى نفسى لا أذكره ، فجمعت هذه الأدلة ضده تعنتاً وتلفيقاً .

ثم جاءت سيدة وجلست إلى جانبنا ، متوسطة العمر والملاحة تلبس نظارة وتحمل كتباً وأوراقاً ؛ لم ترد إلا أن تنهمك فيها حتى لا تبدو أنها فضولية ، ولكن قراءتها لم تطل بعد أن رأت أن الشاب الجالس منصرف عنها إلى صديقته التى كانت تبدى كل علامات الاعجاب بصاحبها ، كانت تؤمّن على كلامه بالقول ، وكان تهز رأسها إيجاباً وسلبا تمكينا لموافقتها ، وتبتسم غبطة بأرائه ووجهة نظره .

كان وراء هذا الاعجاب الشديد حكاية ولاشك ، ولأمر ما كانت الفتاة حريصة على أن تحصر هذه الشاب فى دائرتها وحدها ، ولعل ذلك الذى دعانى الى أن أرميه بالمعته . ثم ان السيدة لما رأت انصرافى كذلك عنها بملاحظة الجالسين إلى جانبها ومراقبة الخادمات اللاتى كن يصلحن أطباق الشاى والحلوى بجوارى : بدأت تتقرب الىّ بالوسائل التى تعرفها كل امرأة . ولكننى لم أجد فى نفسى رغبة إلى الرياء ولو مجاملة ، فبقيت صامتا حائر العين جامدا . فلما رأت هذا الانصراف منى لم تجد بداً من أن تصلح نظارتها وتبدأ القراءة من جديد .

وجاء فى هذه الأثناء زبون من أصحاب المعاطف المخزونة خلفى ، وراح يبحث عن معطفه بين عشرات من أشباهه وقد انثنيت قليلا لأخلى مكانا لوقوفه . ولعله كان يحملق إلىّ دون أن أحس ، وكان يتخير سؤالا يلقيه علىّ مع استحالة المناسبة .

عند ذلك سمعته يسألنى عما إذا كنت أعرف الألمانية ؟ وكان هذا التطفل سببا لأن أجيبه بصوت مرتفع واستهتار حتى أجعله يحس بسخف سؤاله .

وهذا السؤال لايكاد يتغير يسمعه الغريب فى روما كما يسمعه فى بودابست ، ويسمعه على الراين كما يسمعه على الدانيوب حتى إذا انتهى السائل من حكاية اللغة ، راح يسألك عن مدى إعجابك بالمدينة التى تزورها .

حتى إذا أجبته بأنها أمتع مدينة عرفتها ، وأن أهلها أعرف الناس بأصول الضيافة والمجاملة بما هو محفوظ معروف . . . . . ابتسم ابتسامة تقدير وإعجاب ، وراح يزيدك إيضاحا وتفسيرا عن مواطن الجمال والفن فى هذه المدينة ، وقد يلهبه هذا الحماس

إلى دعوتك أو استضافتك ولو على جولة فى شوارع المدينـة ، حتى لايدع ركنا أو بناء قديما أو حديثاً الاّ يقف أمامه

أيام كولون

فقد حدث أن عرفت أحد هؤلاء المتحمسين فى كولونيا ، إذ هبطتها مرة فى الصباح الباكر ، ودخلت أول مقهى صادفته مفتوحا فى تلك الساعة ، وهناك وجدت من الخادمة استعدادا للـكلام والسمر إذ لم يكن فى المـكان غيرنا ؛ ثم دُفع الباب ورن جرسه ودخل رجل متمدد البطن أصلع الرأس مفتول الشوارب على الطريقة الغليومية يسير وهو يدك الأرض تحت قدميه .

فسلم على الفتاة وأحنى رأسه إلى وجلس إلى جانبنا ، وما أسرع أن جرنى إلى الحديث بالمقدمات عن الجو والمطر والبرد والحر ؛ فسألنى أولاعما إذا كنت مكسيكيا أو برازيليا أو افريقيا أو هنديا أو من جزائر المحيط الجنوبى .

حتى إذا عرف أننى من مصر راح يمدح و يسترسل فى المديح ، و راح يعدد مواطن العظمة والخلود فى الحضارة المصرية ، ثم عقب على ذلك بما يجول فى نفسه منذ أمد طويل إلى رؤية أرض الفراعنة

والتخطر على شاطىء النيل المقدس . . ولو أننى ذكرت أن موطنى البرازيل لما توانى الرجل عن توجيه هذه الرغبة الدفينة إلى عجائب الأمزون ، من غابات المطاط ومزارع البن والموسيقى الأسبانية العنيفة !

بيد أن أمثال هذا الرجل يحمل ولا شك قلبا نقيا مخلصا فى كل ما يقوله ، غير أنه يكيف هذا الجو بحيث لا تتعارض رغبة برغبة ولا غاية بغاية !

وهذا كله ولا ريب مقدمة إلى حديث أعظم خطرا وأمتع عند صاحبه ، وهو التحدث عن بلده وعن وطنه وما إلى ذلك فيجرى الحديث على هذا النسق :

— أنك تجيد الألمانية (مثلا) !

— (فتقول بشىء من الزهد) أعرف القليل منها وليست هذه إجادة . .

— أؤكد لك أنك الأجنبى الوحيد الذى يتسيطر على أصول هذه اللغة تسيطراً كاملا . أين تعلمتها ؟

— (بتواضع) فى مصر

ثم ينتقل الحديث إلى الخطوة الثانية .

— كيف ترى كولونيا (مثلا) ؟

— مدينة عظيمة حقا

— صحيح ؟

— بالطبع

— ومتى هبطت المدينة ؟

— اليوم فقط . .

— هل ستقضى وقتاً طويلا

— يومين ليس إلاّ

— يومين ؟ لا ، هذا لا يجدى ولا ينفع . إذ أن هذه المدينة من أقدم بلاد العالم ، أنها تحوى من أماكن الفرجة مالا تحويه مدينة أخرى ، لقد كان الملك فلان يعتبرها أجمل مدينة على الأرض ، وكانت الأميرة فلانة تعبدها .

— هل زرت الكتدرائية ؟

— سأزورها فى المساء .

ثم لا تنس أن تزور معرض الصور ، والمتحف القديم ، وحديقة الحيوان والقلعة الملكية الخ الخ .

وهكذا يسرد عليك الرجل كشفا طويلا بما تجب زيارته ، من هذه الأمكنة التى لا تخلو منها مدينة من المدن ، ويؤكد لك من أهميتها حتى لتشعر أن الاهمال فى ذلك جريمة لا ينفع فيها ندم أو استغفار .

وهكذا كان صديقى فى كولون ، والد تلك الفتاة والضابط فى الجيش الامبراطورى سابقا ، لقد كان متحمسا لبلده حتى لم يدعنى أفلت من عينيه ساعة واحدة ، بل كان يعقب على موعد الصباح بموعد الظهر والظهر بالمساء ، وكنا نطوف حول المدينة ونقف أمام كل شىء ، حتى أننا ذهبنا يوما إلى سوق الخضر وراح يشرح لى نظامه وعظمته ، كأن أسواق الخضر من عيون الآثار التى لا تعرفها إلا مدينة ككولونيا . .

موسيقى

وكانت الفرقة العازفة فى مقهى ميونخ من الفرق المعروفة وكان رئيسها من الأسماء المتداولة فى الصحف ولوحات الاعلان ؛ وكان المشرب حافلا بمئات الزائرين لم يعد مقعد واحد من المقاعد الجلدية الحمراء خاليا ، ولم ينصرف أحد من الجالسين

إلى الحديث أو السمر إذا عزفت الموسيقى ؛ حتى إذا انتهى الدور دوى التصفيق كالرعد وعلت همهمة الأعجاب وانفرجت الأفواه بالابتسامات العريضة ، الى رئيس الفرقة الذى يتقدم الى طرف المنصة وينحنى برأسه حتى ركبته ويتلفت يمينا وشمالا يشكر ويقبل الهواء .

ولست أدرى لِمَ لم أستمتع اليوم بهذه الموسيقى ؟ التى أذكر أنها قد فعلت بى فى الصيف الماضى أبلغ ما تفعله الموسيقى بقلب . ولكن الاجهاد والتعب ، قد حد من هذه الاستعداد ، ومن القدرة على تفهم أسرار الفن ومن الاستمتاع بهذه الرياضة الروحية السامية .

والموسيقى لاتتغير ، ولكن نفوسنا هى التى تصبغ الجو الذى نعيش فيه ، فتستحيل الموسيقى إلى ضجيج مزعج يهز الأعصاب ويثير سخائم النفس ، أو تستحيل هذه الأنغام الهادئة إلى أزيز سخيف ، إذا كانت النفس جامدة والجسم متعبا مجهدا .

وكانت الفتاة الجالسة إلى جانبى تغمض عينها ، وتتمتم بشفتيها وتهز رأسها هزاً رقيقا ، ومن حين إلى حين كانت تنظر إلى

صاحبها بلذة عجيبة ، كأنها تحاول أن تثبت له درجتها من دقة الاحساس ، ومن الأثر الذى تتركه الموسيقى فى نفسها .

تحاول أن تثبت له رقة مزاجها ومبلغ أنوثتها ، ومقدار فعل الموسيقى بأعصابها ! أليست امرأة ؟ ثم أليست المرأة هى التى تجعل من عواطفها بضاعة رابحة تتاجر بها ! كأن النساء أدق إحساسا وأرق مزاجا من الرجل ؟

وحول المائدة المجاورة جلست سيدة سمينة فى وسط من الأطفال والرجال ، وكانت أحاديثهم عائلية جعلت كل واحد منهم منصرفا الى ما يدور بينهم من قصص ومن ملاحظات خاصة ؛ ولكن السيدة ما ونيت منذ أن اكتشفت وجودى عن التلفت إلى مكانى ، والنظر إلىّ كلما سنحت الفرصة واغرق أطفالها فى الضحك ، أو أحست بأننى منصرف إلى القراءة أو إلى التحديق إلى الناحية الأخرى .

فلم أستسغ هذا الفضول طويلا ، بل أردت أن اتحدى الفضول بالفضول ، فتعمدت أن أنظر اليها وأن انصرف عن كل شيء إلا من النظر إلى مكانها ، فكنت أدمن النظر إلى شعرها وإلى

قفازها وإلى حذائها ، وكنت احملق الى فمها حين ترفع قدح الشاى اليه ، حتى شعرت بأن هناك شيئاً غريبا نابيا جعلنى انصرف اليها هذا الانصراف كله ؛ لهذا لم تربدامن أن تديروجهها وأن تغرق نفسها فى أحاديث أطفالها .

وفى ذلك الوقت لم يسعَ أحد من الجالسين إلى مغادرة المكان ، وقد انتهى كل واحد من التهام حلواه أو احتساء قهوته ولم تبق إلا متعة الموسيقى ، فوقفت الخادمات صفا الي جانبي وأيديهن منعقدة الى صدورهن كأنهن يصلين ، وقد ترك بعضهن « صينية » القهوة بين أذرعهن ، وانصرفن بعيونهن الى الموسيقى وقد كان هذا المنظرفاتنا جميلا ؛ وكانت أصغر هذه الفتيات تبدو كأنها عروس ، ولكن إعجابى بها كان ضعيفا فلم أشعر برغبة الى النظر اليها ، أو الابتسام المعروف فى مثل هذه المواقف .

ولعل ذلك كان الدافع إليه السفر ، وشعورى بأن مقامى لن يطول أكثر من ساعات قليلة ، كأن الاعجاب بالجمال معقود بالأغراض والمآرب والغايات ؛ فاذا استحالت كفرنا بوجود هذا الجمال وبأثره فى النفوس والقلوب ؟

كانت مشكلة الخطابات أشد ما كان يحز صدرى فى ذلك اليوم ، كان من الضرورى أن أرسل جملة من هذه الخطابات قبل أن أترك ألمانيا ، كان لا بد أن أرسل بطاقات إلى برلين أشكر أصحابا وأذكر آخرين بشىء نسيته ! وكان لا بد أن أرسل خطابات هامة إلى مصر ، ولايضيرنى لو وصلت هذا الخطاب بعد عودتى إلى القاهرة !

وكتابة الخطابات يارعاك الله أسمج واجب عرفته ، وأثقل ما يكون هذا الواجب عندما تشتد الحاجة إلى كتابة هـــذه الخطابات والبطاقات وما اليها ونحن على سفر ، فاشعر بالعجز جملة ... فأفاضل بين أهمية خطاب وخطاب وجواب وآخر ، فاسقط هذا من الحساب ، واستبعد ذلك ، واهمل آخرا لسبب ثالث ، فلا يبقى إلا خطاب واحد ، أفـكر فى صيغته وأتخيل أننى كتبته ونمقته ، وألقيته فى أقرب صندوق للبريد ، حتى لا يبقى من تحقيق هذا الواجب الذى أصبح بسيطا إلى هذا الحد ، إلا أن أخرج ورقة واستعيد ما سبق أن كـتبته تصوراً .

وهكذا أخرجت الورق الأبيض والمظاريف التى ألصقت عليها

طوابع البريد تذليلا للصعوبات الطارئة ، وتأكيداً بأن رغبتى فى الكتابة أكيدة لا يشوبها عارض ؛ ثم قربت جيب معطفى حيث ذلك القالب من الشوكلادة ، ورحت أقضم منه فى خفية عن العيون ، بينا أعددت القلم كأننى أعد سيفا للنزال والمبارزة.

وبدأت بكتابة العنوان ، لأنه ولا شك أهم بكثير من الجواب نفسه ، فالخطاب لا يصل بدون عنوان مدون على مظروفه ، ولكن الجوابات الفارغة وما أكثرها تصل فى سلام وأمان ! . وكأن القلم قد أحس بهذا الجهاد النفسى الذى كنت أعالجه ، فجمد ريقه فى حلقه واحتبست أنفاسه فلم ينفع فيه النثر ولم يجد النقر ، فحمدت الله على ذلك وجمعت أدواتى فى جيوبى مرة أخرى .

ثم حاولت القراءة ، وكانت جريدة (ميونخ اتسايتنج) إلى جانبى ، فما أن رفعتها إلى وجهى وبدت حروفها الغوطية السوداء كأنها الهيروغليفية من أثر الأجهاد والتعب ، حتى أحسست بأن رغبتى فى القراءة ليست جادة ، كما أحسست بأن عينى تخزنى بعنف وكأنها توكد من رغبة الأنصراف عن القراءة .

صمتت الموسيقى ، وبدأ الجالسون ينصرفون ، وتغيرت وجوه الفتيات إذ بدأت ساعات العمل الليلية ، وبدا المكان

الواسع مهجورا ، فلم تبق إلا مقاعد قليلة تجلس عليها عجوز تقرأ صحيفتها أو شيخ يستريح ، ولكن لم يكن بد من الجلوس فى هذا المكان مع خلوه ، فهو خير من التجوال فى الشوارع المطيرة التى أغلقت أبواب متاجرها ، وأظلمت نوافذها فى مثل هذه الساعة .

ثم ولجت المكان فى تلك الساعة سيدة حملت طائفة من اللفافات والصناديق الورقية ، وجلست إلى جانبى وطلبت عشاء ، ورأت من خلو المكان ما شجعها على فتح هذه اللفافات واستعراض ما اشترت ــ ولعلها هربت من وحدة البيت ، ولكنها استبدلت وحدة بوحدة ، وبيتا خاليا بمكان مهجور .

وجاءت إليها الخادمة الجديدة بلباسها الأسود والأبيض ، وقد تدلى على صدرها صليب من الماس الصناعى الرخيص وترجرج على هذه اللفائف ، التى أبدت الخادمة ولا شك اعجابا بها وتقديرا لذوق السيدة ، وتمكينا لرابطة الالفة بين الخادم والمخدوم فى مكان خاوٍ خالٍ كهذا المكان .

عند ذلك لم أطق صبرا على الجلوس ، فقمت على قدمى فجأة واخترقت صفوف الموائد والمقاعد الخالية إلى الطابق العلوى وقد

خصص لقراءة الصحف ولعب الشطرنج ، كما خصصت قاعة فسيحة منه للرقص ؛ وجدتها مظلمة وحيدة مهجورة كأنها فناء كنيسة فى ساعة المساء ، وكانت بعض الخادمات تدهن أرض القاعة وتعدها لليلة السهرة ، حتى كدت أنزلق من شدة استوائها وملاستها !

وكانت قاعة القراءة تبدو كأنها غرفة للسمر فى بناء مجلس اللوردات الانجليزى . قد صفت فيه المقاعد الجلدية ومقاعد المخمل ذات المساند العالية ، وتجمعت بعضها حول المدفأة ، كما وضعت منضدة واسعة صفت عليها أنواع الجرائد الانجليزية والأمريكية وغيرها من الصحف الأوربية .

ومع أن رغبتى فى القراءة كانت ضعيفة بيد أننى أحسست شيء من المتعة من تقليب عشرات الصحف والمجلات المصورة لمعروضة فى هذه القاعة ، كما تقلب مؤلفات جديدة فى مكتبة من لمكاتب بقصد الاطلاع أو الشراء .

ثم أقبلت على خادمة سمحة الوجه حلوة الابتسامة تسألنى ماذا أتخير من أنواع الشراب ؟ فأفهمتها بأدب ورقة أن قد أخذت

كفايتى من القهوة فى الدور الأرضى ، فشكرتنى وانصرفت ، ولكنها انصرفت لتعلن رئيس الغرفة بمقدمى ، فجاء الىّ بعد قليل يكرر على السؤال لأرد عليه بمثل هذه الاجابة .

ولكنه لم يقتنع إذ أخذ يشرح لى تقاليد هذا المكان واستقلال طوابقه وغرفه . فرواد الصحف مجبرون على تناول قهوتهم فى هذه القاعة . ولعل خلو صاحبنا من العمل فى هذه الساعة هو الذى جعله يطيل فى الحديث والمناقشة ، التى انتهت بأن أقتنع بدفاعى ووجهة نظرى . وذلك بعد أن وعدته بأن هذه القاعة ستكون مكانى المختار منذ تلك الليلة

الساعة الثامنة .

كانت الساعة الثامنة ، هو الموعد الذى ضربته لأترك مقهى فرستنهوف . فما أن دقت ساعة قاعة المطالعة الثمانية بصوت منخفض رزين حتى كنت فى طريقى إلى الطابق الأرضى ثم إلى الشارع .

لقد بدا الطريق مظلما موحشا ، إذ لم تنقطع أمطار ذلك اليوم بل زادت شدة وانهمارا فبدت أرضه صقيلة كالمرآة وقد

انعكست عليه مصابيح الشارع وأنوار بعض المطاعم التى بقيت وحدها مفتوحة إلى تلك الساعة .

وعند مدخل أحد المتاجر المغلقة ، وقفت عجوز تبيع صحف المساء ، وتصيح بصوت رفيع متهدج كأنه صوت طفل يستنجد أبويه : وقد نفذ الماء إلى ما تبيعه من هذه البضائع الورقية التى عملت على اخفائها تحت معطفها ، فكانت هذه العجوز تجاهد المطر وخلو المكان ، كما كانت تجاهد الليل وضعف الشيخوخة .

وكان ميلى إلى الاحسان إليها لاشك فيه ، بيد اننى لم أكد أضع هذه الرغبة موضع الفعل ، وأفكك أزرار المعطف والسترة حتى كانت ساقىّ قد حملتنى عشرة أقدام بعيداً عنها ، فابتلع هدير المطر صوتها الضعيف الباكى ، فكنت كأننى القافلة فى صحراء واسعة ليس لها أن تتوقف أو تنكص أو تتراجع !

وبدت المحطة ، بأنوارها المتدفقة من كل نافذة ، وبساعتها المضيئة ، وبعشرات السيارات الجاثمة أمامها ، وبصفيرها وضوضائها الذى تخيلت بأننى كنت أسمعه ، لقد بدت فعلا كأنها الواحة فى

تلك الليلة البهماء ، وكنت فعلا ذلك الغريب المتعب المجهد ، الذى ليس له إلاّ أمل واحد ، هو ان يلحق بالقافلة التى تنتظره .

وكان أول ما فعلته أن استرجعت حقائبى من مخزن الأمانة وجررتها الى ركن هادىء . .

فلسفة الحقائب . .

للحقائب أثرها وخطرها فى حياة المسافر !

والمسافر المجرب يعرف قيمة الحقائب ، إذ يعرف ما يجره عليه سوء اختيارها من متاعب ، وحسن اختيارها من غنم يعرف أن الحقيبة للمسافر كالملابس التى يقول عنها شكسبير أنها تصنع الرجل .

وكم من حقيبة كانت مصيبة على صاحبها ، كانت سببا فى الحد من قيمته وفضله ووجاهته ولا ينقذه حتى ماله ، وكم من حقيبة فعلت كالسحر فى تسيير الأمور وتذليل المتاعب ؟

إذ لكل حقيبة شخصيها ، ولكل حقيبة تراها على رصيف المحطة حكاية وقصة تحدثك بها عن صاحبها ، وهى قلما تكذب أو تمارى فى الحقيقة . وليست الحقيبة الجديدة ، وليست الحقيبة الجلدية

الغالية ، هى التى تتكلم بأنفة وفخار عن صاحبها بل انها قد تكون شرا عليه ، قد تدل على أن صاحبها حديث عهد بالنعمة واليسر ، تدل على أنه غريب فى عالم السياحة لا يصلح رفيقا ممتعا فى رحلة قطار طويلة ، عالة على من حوله يسأل ويلحف فى السؤال حتى يضجر الجالسين !

وهل تخفى شخصية صاحب هذه الحقائب عن أعين الحمالين ؟ هل يجهل حمال مرسيليا ! وشيال تريستا ! وسائق التاكس فى باريس قرارة نفس هذا الوجيه ؟ أو شخصية السيدة التى ترافقه وقد جمعت ألوان الحقائب وأشكالها واحجامها ! من حقيبة اليد ، وعلبة القبعة الصغيرة ، إلى صناديق الملابس الكبيرة التى تشبه صناديق أزياء الممثلين ؟

فلا تعود هذه الحقائب إلى موطنها لابد أن يدفع صاحبها ثمنها ، مقسوما بين الحمالين والشيالين وسائقى العربات وبوابى الفنادق ؛ لأنهم يعرفون أن هذا الضيف سوف لا يعود ، وأن هذه الحقائب لا رجعة لها .

وليست حقائب الورق المضغوط إلا فضيحة لصاحبها أينما

ذهب ، ولو كانت جديدة لامعة مصقولة ، فاذا دخل بها فندقا من الفنادق الكبيرة رماه حارس بابه بنظرة استنكار قاسية ، كأنه يربأ بفندقه أن يحوى مثل هذه الحقيبة ولو دفع صاحبها الأجر كاملا غير منقوص .

وبعد ، لم تبق إلا طائفة ممتازة من الحقائب ، الحقائب الجلدية القديمة ، التى تبدو كأنها قد جاهدت طويلا وطويلا جدا على أرصفة المحطات ، وفى أركان القطارات ومخازن الأمانة ، تبدو عظيمة فخورة بما ألصق عليها من عشرات البطاقات الملونة التى دونت عليها أسماء الفنادق ، وهى التى كانت يوما من الأيام ضيفة بين جدرانها .

هذه الحقائب القديمة تعرف كيف تحترم نفسها ، وتحترم صاحبها ، فهذا الرجل يدخل بملابسه التى بدت عليها مظاهر القدم من فعل القطارات ، يدخل بها أفخر الفنادق وهو واثق بأن كل صدر مفتوح له ، فهذه البطاقات الملصوقة تعمل كالشهادات والدبلومات فى عالم السياحة !

وترى بعضهم يعرف سر هذه القصة ، فلا ينى أينما ذهب

من أن يسجل زيارته فى كل فندق ينزله بلصق شهادة من هذه الشهادات التى يرعاها بتمكين لصقها ، إذا عملت الأيدى الطائشة على تمزيقها حرصا على جمال الحقيبة !

والرحالة المجرب يعرف كيف يقتصد فى حمل حقائبه ، فالحقائب كالأطفال فى السفر البعيد ، تحتاج كل واحدة إلى رعاية ، تحتاج إلى المكان الفسيح وتحتاج الى من يحملها برفق ، ويعنى بها إذا ألم بها ماينتاب الحقائب من أدواء وأمراض ، وأمراض الحقائب وقاك الله مستعصية مرذولة فى كثير من الأحيان .

أمراض الحقائب

كنت يوما فى برنديزى أنتظر قطار المساء إلى روما ، فكان على أن أخزن حقائبى فى مستودع الحقائب فى الميناء ، وكان من بين هذه الحقائب حقيبة زرقاء اقتنيتها فى لندن وقد خصصتها بعناية ممتازة إذ جمعت فيها أدوات الزينة وعلب السجائر وأدوات الكتابة من أوراق وأقلام ، ثم حزم المناديل والياقات والأزرار مما يحتاجه اللباس الافرنجى .

فلما قرب موعد السفر ، تخيرت حمالا ضخما من حمالى الجمرك للقيام بمهمة نقل هذه الحقائب من المستودع إلى العربة المنتظرة ، ولعله

كان ممن روضوا أذرعهم على حمل الصناديق الثقيلة ، إذ أنه ما كاد يرفع هذه الحقيبة ، حتى تفككت أقفالها وفتح غطاءها وانتثر ما فيها فجأة بين أركان المكان ، فلم تهبط على أرض الغرفة إلا فارغة .

فكان هذا الحادث في المحطة الهادئة ، دافعا لان يجمع كل من فيها من عمال وحمالين ، الذين راحوا يجمعون هذه الحاجات وهم يقلبون كل مايلتقطونه ويفحصونه قبل وضعه فى الحقيبة ، شأن كل إيطالى صميم ! بينما أنا واقف وقد تملكنى الغيظ والدهش والحنق حتى عقد لسانى وعقد ذراعى عن الحركة .

وانتهى الأمر بأن وزعت علبة السجائر التى اكتشفها هؤلاء المعاونون بين هذا الجمع الزاخر من الحمالين والعمال ، ثم إنهم جاءوا الى بحبل غليظ مما تربط به الصناديق وجوالق الفاكهة ، وعقدوا به هذه الحقيبة المريضة فاستحالت فى لحظة إلى شيء مما يحمله البحارة فى أسفارهم من سقط المتاع !

وهذه الحقائب التى تتفكك من لمس الهواء ، ليست أدعى للحنق وأثارة الغيظ من زميلتها التى تأبى أن تنفتح ولو كنت فى مسيس الحاجة اليها ، تأبى أن تنفتح ولو كنت ممن لا ينسون

ربطة مفاتيحهم ، فلو عالجتها برفق دار المفتاح فى أقفالها دون أن يفتحها ، وإذا أغلظت المعالجة وقف فى حلقها ؛ حتى تحس بأنك أمام شخصية شاذة عنيدة لئيمة الأصل ، تقعدبك إذا دعتك الحاجة اليها .

وينظر إليك الجالسون حواليك وهم يرقبون هذا الجهاد بينك وبين حقيبتك وقد ارتفعت حمرة الخجل والغضب إلى وجهك ، حتى تحس بأن حلا واحداً هوالذى يحررك من هـــذا المأزق السمج ، وذلك أن تلقى بهذه الحقيبة من النافذة وتجلس بعد ذلك هادئا فى مكانك ، كأنك انتقمت لنفسك من عدو جبار .

ـ تحس ـ وأنت فى محنتك ـ بأن هذه الحقيبة أسمج أنواع الحقائب ، وتنسى وأنت فى ثورة غضبك تلك الطائفة من الحقائب التى إذا فتحتها لا تعرف كيف تغلقها مرة أخرى !

وقد تـكون فى قاعة الفحص الجمركى ، وقد تكون فى القطار وقد ألتف حولك جمع من النساء يراقبون هذا الصراع العجيب فتضع الحقيبة على أرض ، وتجلس عليها وتدوس على غطائها بركبتيك وقد تصل الى أقفالها ، ولـكنك لا تـكاد تقف حتى تراها تنفجر ، كالذى قد أسر الضحك ساعة من الزمان !

وليس لك فى مثل هـذا الموقف إلاّ أن تطلب المعونة ممن يراقبونك فيجلس منهم اثنان على الحقيبة ويسعى ثالث إلى التوفيق بين أقفالها وهكذا تنجح أخيراً . .

عودة الى الخطاب

جمعت حقائبي إلى جانبي فى ركن هادىء مظلم بعض الشىء ، ولم أرغب فى الجلوس فى إحدى قاعات المحطة خوفا من خطر الانصراف إلى مراقبة الجالسين والقادمين ، ولم تبق لدى إلا فرصة واحدة سانحة لـكتابة هذا الخطاب .

جلست على عربة مما تستعمل لنقل الحقائب وفتحت حقيبتى الصغرى على عربة أخرى بجوارها ، وأخرجت دواة المداد الأخضر الذى استعمله منذ سنين ، وملأت القلم ، كما أعددت المظاريف والأوراق من جديد .

وعند ما خططت على رأس الخطاب « حضرة صاحب السعادة » تلفت حولى وأنا بين هذه العربات والحقائب فلم أتمالك نفسى من الضحك ؛ إذ بدت لعينى سخرية الحياة العجيبة ، فهذا الخطاب الذى سيحمل إلى صاحب من أصحاب السعادة ويقدم



فى محطة ميونخ

.. جلست على عربة مما تستعمل فى نقل الحقايب وفتحت حقيبتى وأخرجت دواة المداد الأخضر الذى أستعمله منذ سنين ..

بالاحترام الواجب ، أرادت الاقدار إلا أن أكتبه فى هذا الركن المظلم من المحطة ، بعد أن عجزت أسبوعا كاملا عن أن أجد فى نفسى جلداً وقدرة على الجلوس لتنميقه وتحريره .

ومما زاد فى سخرية المجلس أن جاس على عربة أخرى مجاورة شيال يتناول عشاءه ، وقد فرش صحيفة على ظهر العربة وضع عليها قطع الخبز الأسمر وشرائح من السجق وشيئاً من الكوامخ والملح ، وراح يتحدث إلىّ بفمه الممتلىء عن نظام الشحن والتفريغ ، وعن محتويات الصناديق وغير ذلك من لغو الكلام ، بينما كنت أتصيد الكلمات الرنانة والعبارات المنمقة فى تحرير خطاب صاحب السعادة . .

وكان من فضل الله ان انتهيت من كتابة هذا الخطاب ، فلم أتردد فى اقفاله دون أن أراجع ما كتبت ، وقمت أبحث عن أول صندوق للبريد ، ولو اننى أجلت ذلك دقيقة أخرى لكنت حملت هذا الخطاب بنفسى إلى مصر !

وفى العام الماضى كتبت جملة من الخطابات صرفت فى اعدادها وتحريرها أسبوعا وكنت أنقلها من جيب إلى جيب ، وأدور بها شوارع برلين ولا أجد صندوقاً واحداً من صناديق

البريد حريا بحمل هذه الأمانة ، ثم جاء وقت السفر وما زالت الخطابات فى جيبى ، فقلت لنفسى إن فى صميم مصلحتى إرسال هذه الخطابات من المحطة نفسها . ثم تركت المحطة إلى القطار فزدت يقينا بان الخير كله فى إرسال هذه الخطابات من هذا القطار السريع . وتوالت المحطات وأنا أحاول أن أتخير واحدة لهذا الغرض حتى دخلنا الحدود النمسوية ، وكانت السماء تمطر بغزارة فى هذا المكان المنعزل بين الجبال . فهرولت إلى رصيف المحطة باحثا عن عربة البريد ، فلم يرد حارسها أن يتسلم هذه الخطابات لأنها ذات طوابع ألمانية ونحن قد خلفنا هذه البلاد منذ ثلاث دقائق .

وأخذت أحاور الرجل ، حتى أقتنع بتسلم هذه الخطابات ، ولعله أبدى رغبة الاقتناع حسما لهذه المجادلة العقيمة تحت المطر ، وربما كان مصير هذه الخطابات يد ذلك الرجل .

وفى البندقية ، كتبت مرة جملة من البطاقات ، وأعددتها للإرسال إذ أن مهمة تحرير هذه البطاقات بطبيعتها يسيرة ، ثم أننى نسيتها فى جيبى ، وأقلعت بنا الباخرة إلى مصر ثم توالت الموانى والشواطىء حتى بدا ساحل الأسكندرية ، فاخرجت هذه

البطاقات ذات الطوابع الايطالية فوجدت أن بريد السفينة قد حزم ، وأن الطوابع الايطالية قد فقدت صفتها منذ أن دخلنا مياه رأس التين !

مشرب اللبن

حملت هذه الحقائب واحدة واحدة إلى بهو المحطة الكبير ، ووضعت الحقيبة الكبيرة فى مدخل الرصيف الذى كتب عليه « ميونخ — سالسبرج — تريستا » .

وكان مدخل هـذا الرصيف مغلقا فى تلك الساعة ، إذ أن ما بقى من زمن الرحيل ساعة كاملة ، وكانت الى جانب المدخل فتاة وضعت حقيبتها الصغيرة عند قدميها وراحت تنظر بعيون صامتة إلى الظلام كأنها تنتظر هذا القطار بلهفة ورغبة ، فلعلها عائدة به إلى وطن أو حبيب ! وأصدق القارىء أن هـذه الفتاة نظرت إلى وابتسمت ! فقلت فى نفسى إنها ابتسامة الغريب للغريب ونحن على سفر قد يطول بنا أياماً إذا شاء هذا الحظ !

ثم أننى تركت هذا المدخل المغلق إلى مشرب من مشارب اللبن فى المحطة ، ومشارب اللبن وجدت طريقها إلى النجاح فى هذه الأيام فى أوربا ، ووقفت على قدميها تنافس حانات

النبيذ ومشارب الجعة حتى مشارب الشاى فى لندن ، وقد سبقتها دعاية واسعة « إشربوا اللبن كثيراً ... » هكذا تقرأ فى كل مكان.

ولا شك أنك لتعجب حين تجد رجلا ، ممن كنت لا تراهم إلا أمام منصة « البار » يتناول الكأس بعد الكأس ، يطلب كوبة بها رطل من اللبن الدافىء ، ويمصها بأنبوبة من الورق وهو منحن عليها كأنه طفل رضيع .

وكان علىّ أن أملأ زجاجة السفر بماء يغلى ، لخلط هذا الماء ببعض الأدوية مما استعمله للوقاية من الزكام ، فشربت كوبة اللبن الفاتر حتى نضج العرق من كل جوانبى بفضل ما كنت أرتديه من ملابس مزدوجة وأحمله من أدوات وأجهزة ؛ وكان المكان هادئاً رزينا ، وكانت وجوه الفتيات الخادمات وديعة نضرة ، خير عنوان لما يبعنه من لبن وزبد وقشدة .

ثم جاءت إلىّ الخادمة بزجاجة الماء الساخن ، فخرجت بعد إن شكرتها على عطفها .

وعندما عدت إلى مدخل الرصيف ، كان قد التأم جمع من المسافرين نثروا حقائبهم على الأرض ، وراحوا يتدافعون

لكسب حق أولوية الدخول إلى الرصيف . وبين هؤلاء وجدت صديقتنا الفتاة فى مكانها ؛

ثم ابتسمت تلك الفتاة إلى مكانى ، فحمدت الله فى سرى على رحلة سعيدة موفقة !

ثم أقبل قطار محلى ، وأخذت الفتاة تلوح بيدها إلى شاب مقبل من ركاب هذا القطار ، سلمت عليه بلهفة . ثم اختفيا فى وسط الزحام .

فوقفت فى مكانى بين صف المنتظرين ، أحلل كنه تلك الابتسامات التى تمنحها بعض الشفاه بكرم وتبذير ، ثم أننا لانلبث حتى ننسى أصحابها إلى الأبد !

كم ذكرتنى هذه الفتاة ، بصديقتنا المجرية كلارا ترما ، التى دعوتها فتاة الدانوب ، اذ جمع بينى وبينها هذا النهر ، وقربت بينى وبينها موسيقاه فى ليلة مظلمة إلا من النجوم ومن أنوار المركب السارى .

وما أسرع أن قلبنا الصحيفة ، فمضى كل شىء إلا الذكرى والخيال . .

كان ذلك منذ أربعة أعوام . .

أسفرت الشمس على الدانوب عند فينا ، ومسحت مابه من جمال ومن فتنة . فأصبح ماؤه كالحًا لايعكس الأضواء والأنوار ، كأنما علت صفحته مسحة من صدأ ، ولم يبق على شاطئيه من شيء يخفيه الظلام ، فبدا سقيماً جامداً .

وعند ما وقفت بي العربة عند طرف المدينة حيث المركب الذي ينقلنا إلى بلاد المجر ، وأطللت برأسي إلى الشاطىء الطيني الذي نبتت عليه أعشاب برية كالحلفاء ، وتبعثرت بين أركانه قطع الأخشاب والصناديق الفارغة ، شعرت بأن هذه الحقيقة الجرداء تسخر مني ، وتلهو بهذا الذي جاء يبحث عن السحر والخيال على مياه الدانوب ، ومياه الدانوب أصبحت كأنها رجل الأعمال ليس له الوقت ، وليس له يقين في مثل ماجئت أبحث عنه . . .

وجاءت العربات تترى تحمل رفاق السفر من فينا إلى بودابست ، وسواء أكان هؤلاء الرفاق من أهل هذا المكان أم من الذين استهواهم سحر الدانوب فرحلوا إلى فينا ، سواء أكانوا من هؤلاء أم من أولئك فلا شك عندي أنهم

رفاق مرغوب في صحبتهم في مثل هذه الرحلة الطويلة ، لايقتلون الوقت في مراجعة دفاترهم ، أو تصحيح حساباتهم أو ترتيب أوراقهم التجارية .. .

وكان الجمع غفيراً ، والوجوه باسمة لاهية : وقفت أستعرض أصحابها من شرفة المركب وأنا أرد كل وجه إلى بلده ؛ فهذا أمريكى بسرواله الفضفاض ، وهذا ألمانى بوجهه العريض ، وهذه سيدة مجرية بملابسها الزاهية ، وذلك شاب أنيق من شباب فينا يبحث عن الراحة بعيداً عن مدينة المقاهى الليلية .

ومياه الدانوب الجيرية البيضاء ، وهذه المخازن التجارية وأحواض البترول ، وتلك المعامل التى كانت آخر ماودعناه من فينا ؛ كان كل ذلك سقيما ؛ ولكن الحياة كانت نافرة متدفقة من وجوه هؤلاء المسافرين ، لم تدع الملل يستولى على النفوس .. فينزعون إلى النوم على مقاعدهم أو الاسترسال فى القراءة .

وفى ركن من أركان البهو الأنيق الذى يقود إلى قاعة الطعام جلست ، وليست لى رغبة فى نوم أو قراءة ، جلست أستعرض وجوه الهابطين إلى قاعات المركب ..

وحدث كما يحدث دائماً ، أن جلست فى الركن الآخر من هذا البهو فتاة !

وحدث كما يحدث دائماً ! أن أنظر إلى هذه الفتاة ،ويحدث أن تكون هذه الفتاة منصرفة عن الجالسين تقرأ فى كتابها !

ولا شك أن القارىء يرغب فى أن تكون هذه الفتاة جميلة فاتنة ، اذ أى معنى فى أن أقص حكاية فتاة تلهو بالقراءة على مياه الدانوب ، مابين فينا و بودابست ، ولا تكون هذه الفتاة آية من آيات السحر تنفث الفتنة وتستهوى الافئدة !

وكانت هذه الفتاة كما يرجو القارىء منى ، فتاة ككل فتاة فى سنها جمالا ، وإن لم تكن آية من آيات السحر الحلال أو الحرام .

وكنت ـ كما يرجو القارىء منى ـ حريصا على النظر إلى مكانها حتى استقرت نظراتى حيث هى ، وادمان النظر يولد الرغبة ، والرغبة تخلق مواطن الفتنة والجمال حتى لاترى العين إلا إياها .

ثم حدث كما يجرى دائما أن تلتفت الفتاة حولها وهى تقلب صحائف كتابها لترانى أنظر إلى مكانها ، فلا تأبه ولا تكترث ثم ترانى مثابراً على ادمان النظر فتظننى ساهما مكسالا أو مفتوناً

ولكننى لم أكن هذا ولا ذاك ، إذ وجدت أن إدمان النظر فى مكان واحد وفى وجه واحد أقصد وأقل كلفة ، وهو فوق ذلك قد ينتج نتيجة لم يكن لى أمل أو مطمع فيها .

ثم أننى لحظت أن الكتاب الذى كانت غارقة بين صفحاته كتاب انجليزى ، وكان غريباً أن تستهوى الانجليزيةُ فتاة لاشك فى أنها من بنات هذا النهر حتى لتصرفها عن هذه الرحلة المرحة . ولكن طبيعة القصص وترتيب أحداثها تستلزم وجود مثل هذا الكتاب ، لتسبيب وقائع رواية مثل هذه الرواية .

ثم تحول إدمان النظر من الفتاة إلى الكتاب ، وأبديت إعجابا بوجود هذا الكتاب على مياه الدانوب ، كأنما أنا حامى الانجليزية والعامل على نشر لوائها ، ولم يكن ذلك خبثا منى ولكنها طبيعة فى . أبدى انصرافا عن الشىء الفاتن الأنيق ، اعجابا بناحية بعيدة عنه بعض البعد .

وكأنما هذا التحويل فى النظر قد قرب بيننا ، إذ أن جرس الغداء عندما دق أحسست بكثير ثمة فى أن أدعو هذه الفتاة الوحيدة إلى الطعام ! وفى مثل هذا الموقف كانت تعوزنى الجرأة حتى

اروّض من طبيعتى وأ كسر من تقاليدى ، ولكنها الوحدة ثم ذلك المكان المنقطع من النهر حيث ينساب فى بلاد التشك كل ذلك كيّف الأمور على هذا الوضع .

وقبل أن يثب إلى تفكيرى رأى يدعونى إلى التريث أو الحيطةأو الروية مما يعطل الارادة ، كنت أدعو فتاة الدانوب إلى الطعام ، وكأنما كانت الفتاة على بينةمن هذه الدعوة ، لأنهالم تكن تتعلثم فى الاعتذار بل جاء عذرها هادئاً مسبباً أعقبته بالشكر ، الشكر المقصود . . .

وكان المركب ينساب انسيابا ، وكانت أشعة الظهيرة تنعكس لامعة على مياه النهر الفائضة ، وكان الجالس فى قاعة الطعام يطل على الأدغال التى تغطى عبرى الدانوب فى ذلك المكان ، ومن حين إلى حين كنت ترى وعلا يبرز من بين الشجيرات المتدلية على النهر يرد الماء بحذر وحيطة . ثم تصل إلى أذنيك نغمات الموسيقى الوترية التى تعزف فى ردهة قاعة الطعام ، فتحس بأنك فى مسرح حافل ، أو أنك تشاهد قصة سينمائية رائعة !

فلما انتهى الطعام رجعت إلى فتاتى المجرية ، رجعت إليها وكأنما كنا أصدقاء من قديم ، فلم أعد فى حاجة إلى التمهيد

والتقديم ولا إلى صوغ أساليب خاصة منمقة فى الحديث . وكأن كلا منا كان يبحث عن الآخر ، لافتنة وإعجابا برفيقه ، بل لأن الجو قد تهيأ لمثل هذه الصحبة !

وعندما وقف بنا المركب عند الحدود المجرية ، اشتريت سلة صغيرة من العنب رحنا نتقاسم مافيها دون كلفة ونحن نتحدث ونتجادل ، ونفسر ونوضح ككل رفيقين قديمين .

وركبنى الزهو والخيلاء واحسست بالتوفيق فى الحياة واحسست بكثير من الغبطة والهناءة ولم اعد احاسب نفسى إذا تكلمت أو شققت طريق وسط الجالسين والجالسات ، لأننى كنت احسن بالثقة العريضة بالنفس وأنا فى رفقة هذه المجرية الفاتنة !

وعند ما أقبلت العتمة ، كنا نشق أبهج مراحل الدانوب وقد استحالت السيول الطينية التى تركناها فى فينا سلسلتين من المرتفعات التى تغطيها الأحراج والغابات وتتوجها القرى البيضاء والحمراء ، وأخذت الحياة تدب على النهر فكنا ننتقل من عبر إلى عبر ، ومن قرية إلى قرية كأننا قافلة من الحجاج قافلة إلى الوطن تحيى مستقبليها باليمين والشمال .

وعند ما أظلم الليل وأضاءت هذه المرتفعات وارتفعت الموسيقى من جوانب المركب بأنغامها المجرية الراقصة ، وشاركتها جموع المسافرين بالتصفيق والغناء ، ثم بالرقص تحت أشعة النجوم اللامعة ، شعرنا كأنما نحن فى عالم سحرى عجيب لا نكاد نميز فيه أجسامنا ، فلم نعد نرى إلا أشباحا فاتنة راقصة ، ولا نسمع إلا نغم الموسيقى الساحرة ، أو همسا كأنه همس الريح ، أو ضحكة منفجرة فى ظلام الليل ، نحس بأنها صادرة من قلب سعيد جد السعادة !

وعندما عزفت الموسيقى رقصة «الدانوب الأزرق» الخالدة للموسيقى الألمانى شتراوس ، أحسسنا كأن أمواج النهر تحت أقدامنا تتجاوب هذا النغم ؛ ولم تعد لنا طاقة لحبس عواطفنا الجامحة .

وكانت صديقتى المجرية تشعر بهذه السعادة فى صميمها ، كانت مزهوة بنفسها ، فخورة بهذا النهر الراقص ، فخورة بأن هذا الجمع المتحفز يحج إلى بودابست عروس الدانوب .

وكانت تسألنى مرة كل دقيقة : ألست سعيداً وأنت فى الطريق إلى بودابست ؟ ألست سعيداً تحت سماء المجر ؟ ولكنها

لم تسأل عما إذا كانت هي مصدراً من مصادر هذه السعادة ؟ كانت تحس بذلك وأنا إلى جانبها أنعم النظر إلى وجهها في الظلام، ثم إلى مياه النهر التي تبدو وتختفي تحت أضواء المركب الساري

ولكن فخرها بوطنها كان مصدر كل سعادة ، كانت تريد أن يطغى هذا الاعجاب بوطنها على إعجابها بكل شيء؛ فاذا كانت هي ساحرة فاتنة ، فلأن المجر هي مصدر للسحر والفتنة ، وإن كانت عيناها جميلتين فلأن هذا الوطن الذي تفخر به هو مصدر هذا الجمال !

ولم أشعر يوماً بفتنة المرأة بقدر ما أحسست بها حينذاك ، وأنا بجوار هذه المجهولة نتحدث همساً ونحن متكئان إلى حاجز هذا المركب الساري في الظلام ، كأن الوحي والالهام قد هبطا على أكتافنا فنسينا كل شيء إلا وجودنا !

كان هذا الاحساس كأنه الحمى تشعر بأنها تسري في أعصاب ذراعك المتكىء إلى حاجز السفينة ، ثم إلى كتفك وعنقك فرأسك ، حتى إنك لتعجز عن الحركة أو التلفت اللهم إلا إلى حيث كنت تنظر !

لم يكن هذا حباً . .

ولم تكن تلك شهوة جامحة . .

ولكنه الاحساس بالفتنة وأنت بجانب هذه الحسناء المجهولة التي تعرف بأنك سوف لاتراها بعد ذلك ، وأنتما تسريان فى ظلام الليل على مياه الدانوب كأنكما بعض الأحلام

ذكرى فاجعة

وفى خلال الساعة الباقية على وصول القطار — إذ كان الموعد المضروب منتصف الليل — قضيت مهمات جديرة بالاعتبار .

فكان لابد من أن أتحقق من صحة تذاكر السفر ؛

وكان لابد من أن أتخلص من فضلة النقود الألمانية ؛

وكان لابد من اقتناص ركن مريح فى القطار لقضاء الليل .

فما اقترب الموعد حتى أقبل حارس الرصيف واعتلى مقعده المرتفع ، وبدأ يعد مقراطه وقلمه وأوراقه .

فكنت أول من اقترب منه عارضاً ما معى من التذاكر راجياً أن يطابقها بمواعيد هـذا القطار ، خوفا من خطأ ليس فى الحسبان . وهذا الحذر وهذه الدقة ليست فى طبيعتى ، وأنا من الذين لا يدونون مذكرات ولا ملاحظات فى تنظيم رحلاتهم ، ولا يقلبون الأمور على كل وجه قبل أن يبرموا أمراً من الأمور ؛

ولكن هذا الحذر قد علمتنيه التجارب ، بل تجربة مريرة سوف لا أنساها ، وإذا نسيتها فى كل مكان فاننى لنذا كرها كلما خطر لدى اسم ميونخ ، وعلى الأصح محطة ميونخ ، وكيف أنساها وقد حدثت المأساة فى هذا المكان نفسه وفى ساعة متأخرة مثل هذه الساعة منذ عام مضى ! .

القطار الأخير

قبل أن يرحل القطار بخمس عشرة دقيقة ، ولجت هذا الباب فى العام الماضى ، وعرضت على حارسه دفتر التذاكر ليراجع ما شاءت له دقته ، وكانت جيوبى منفوخة بعشرات من الهدايا الصغيرة ويداى مشغولتين ببعض اللفائف والحقائب .

ولم يكن فى جيوبى من النقود الألمانية إلا ثلاثون فنشا هى كل مابقى بعد أن جمعت هذا الذخر من الهدايا .

ولم تكن هذه الهدايا ذات نوع معين أو غرض خاص ، بل إننى جمعتها فى النصف الساعة الأخيرة عند ما اكتشفت أن فى جيوبى من النقود الألمانية ماأنا فى غنية عنه ؛ فاشتريت زجاجات من العطور وعلبا من السجائر وتبغا للغليون ولفافات

من الفاكهة المجففة وصندوقا من الحلوى وآخر من الشوكلادة ثم مجموعة من الصحف والمجلات ثم خمس علب من الكبريت ...

وليس عجيبا أن أقف أمام حارس الرصيف حانقا من فعل هذا الحمل الثقيل ، وهو يقلب تذاكر الدفتر بامعان ، حتى إذا انتهى أعاد القراءة ، ثم رفع نظارته ونظر إلىّ وأشار إلى كشك زجاجي به أحد رؤساء المحطة ، وطلب مني أن أعرض عليه هذه التذاكر !

عندذلك احسست بأن هنالك سراً وراء كل هذا ، ولكني لم أضع وقتاً بل ذهبت للرجل وعرضت عليه هذه التذاكر ، ذاكرا له أنني من ركاب هذا القطار الى البندقية حيث تنتظرني الباخرة في ظهر الغد ، فقلب الرجل الدفتر وهز رأسه ، وأجابني بأن هذا القطار لا يتبع الطريق الذي حددته هذه التذاكر ولو أن الغاية واحدة ، ويجمل بي أن انتظر إلى صباح الغد ؟!..

قلت ، ماذا . . . ؟ ! أليس هنالك منطق أو ذوق أو تفكير عند هؤلاء الناس ، يحررهم من مثل هذا السخف والهراء في منح النصيحة ؟ نظرت إلى الرجل بعين مفتوحة من الدهشة ، وأفهمته

أن الموقف ليس مما يحل على هذه الصورة البسيطة ، فلا بد لى أن الحق بهذا القطار إذ الباخرة فى انتظارى وإن فقدته فقدت الباخرة ، واست اجهل مايجره ذلك من رزايا و بلايا..

ولعل الرجل فهم كنه موقفى ، إذ أنه طلب منى عرض هذه التذاكر فى مكتب معين فى المحطة خصص للاسفار الأجنبية ، وفى يد عامله وحده أن يحل هذه المشكلة ، دون حاجة إلى تبديل قطار بقطار أو تذكرة بتذكرة .

وكانت هذه الدقائق تمر كالبرق ، وقد تصبب منى العرق وهدتنى هذه الفاجعة التى هبطت علىّ دون انتظار . فلما وقفت أمام نافذة هذا المكتب ، أخذت أشرح لصاحبه حكايتى ، وراح هو يراجع هذه التذاكر ، ليصل إلى النتيجة التى سبقه اليها زميلاه .

وكان الرجل سمح الوجه رضى النفس ، فهون علىّ من الأمر وابدى رغبته فى أن يجرى تعديلا تافها فى بعض هذه التذاكر حتى تصبح صالحة للعمل ، فشكرته وأبديت له عظيم تقديرى ؛ ثم أنه ذكر بعد ذلك ، أن هذا التعديل التافه لا يكلفنى إلا سبعين فنشا ، أليس هذا بالشىء الزهيد ؟!

عند ذلك أحسست بالفاجعة الجديدة ، فأرسلت يدى إلى جيو بى أجمع ما بقى من شتات الفنشات الصغيرة الحمراء ، التى أردت قبل ذلك بقليل أن أتخلص منها إذا وجدت من يقبلها ، وكنت كلما عثرت على قطعة من هذه القطع ألقيت بها على أرض النافذة والرجل منحن على النافذة ينظر إلىّ بامعان .

حتى إذا أخليت جيو بى من هـذه السحاتيت ، رحنا نعد ما جمعت ، فاذا بهذه الـكومة لا تعدو قيمتها ثلاثة وثلاثين فنشا ليس إلا .

فنظر إلىّ الرجل يطلب البقية ، ثم نظرت أليه أطلب المعونة

فقلت له ما العمل وليس فى جيبى غير هـذه السحاتيت ، وليس لى إلا أن أعرض للبيع بعض هذه الهدايا التى اشتريتها قبل ذلك بدقائق معدودة فى سبيل هذه السحاتيت الباقية ...

ولم يرد الموظف أن يستبدل تذاكر السفر بعلب السجائر ، وزجاجات العطور . ثم أننا دخلنا فى حوار بين استعطاف من جانبى وتفسير للأصول والقوانين من جانبه . وقد مرت الدقائق ولم تبق إلا السبع ، والمسافة بين هـذا المـكتب و بين القطار ليست باليسيرة .

وشاء الله أن تهبط على فكرة جديدة ، إذ ذكرت ما كنت أحمله فى إحدى حقايبى من بعض النقود الأجنبية ؛ من إنجليزية وإيطالية وفرنسية ، فعرضت على صاحبى هذا الحل ، فقبله رأفة بى ، ودفع المبلغ الفقيد من جيبه الخاص ، فسلمنى التذكرة وإنا أكيل له مافى جعبتى من كلمات الشكر والتقدير .

حتى إذا وصلت إلى القطار بحثت عن مكان الحقيبة فلما أجدها ، اذ تبدلت العربات أثناء غيبتى ، فلم أكتشف مكانى إلا وقد تحرك القطار .

ووقفت فى النافذة أنظر إلى بطاقة صغيرة كتب عليها اسم المكتب الذى يعمل فيه هذا الرجل ؛ وأذكر كيف أنه سينتظرنى ، وسينتظر منى أن أرد صنيعه بمثله ، وكيف أنه بعد أن يطول انتظاره سيحكم على بنكران الجميل وبالخسة ولؤم الطبع وكيف أنه سيحكى هذه الحكاية لكل من يقابله ؛ وأنا ، علم الله أبعد الناس عن النكران .

رجعت إلى مكانى من الصف بعد أن تأكدت من صحة

هذه التذاكر ، وأخذنا ندخل واحدا واحدا إلى رصيف المحطة ، وأكثرنا من الأجانب الراجعين مع طيور الشتاء إلى بلاد الجنوب.

وكان كل واحد يحمل في يده حقيبة صغيرة حتى يكون له الحق في حجز مكان من الأمكنة ، والقطار الموعود لم يأت به ، حتى بردت رغبة هؤلاء المنتظرين والقى كل منهم حقيبته على رصيف المحطة وراح يبحث عن بقية متاعه . وأكثرت السيدات من السؤال والاستفهام كلما اقترب عامل من عمال المحطة ؛ وهذه الاسئلة لا غاية من ورائها ولا رغبة ملحة فى القائها ، ولكن للسفر رهبة فى بعض النفوس .

فتسمع كلما اقترب أحد هؤلاء العمال من امرأة من المنتظرات.

— هل هذا القطار المسافر إلى ترينستا ؟

فيجيب بإيماءة رأسه .

— وهل تراه يصل فى الموعد المقرر ؟

فيجيب كذلك بهز الرأس وهو يشعل غليونه

وإذا حدث وتباسط الرجل فى الحديث توالت هذه الاسئلة

— وهل سيكون مزدحما !

فيجيب الرجل بلا أدرى

— وهل من المنظور أن نجد لنا مكانا للاضطجاع والنوم ؟

ربما ولم لا !

وهكذا ينتقل هذا الحديث من مسألة إلى مسألة لاتعدو حكاية القطار ، وموعد قيامه ووصوله

ومن بين هذا الجمع تجد ذلك الذى لايهدأ له بال ينقل حقيبته من موضع إلى موضع على الرصيف ، وهو يؤمل أن يكتشف أمنع نقطة يهاجم بها هذا القطار بحقائبه إذا أقبل .

ثم إن الضجر بدأ يتماسكنا بسبب تلكؤ هذا القطار وأخذ حماس الواقفين يبرد كثيرا فلم يعد أحد يسأل عن موعد وصول أو قيام ؛ كأن هذا التلكؤ قد ضيّع من هيبة القطار وجعل الاهتمام بساعة وصوله ضعيفا .

وكان كلما سمع الواقفون صلصلة ، أو بدا لهم ضوء من بعيد تتجه رءوسهم نحو مصدره حتى يتبين لهم خطأ البصر وخطل السمع فيرجعون إلى ما كانوا فيه من حديث ؛ ولكن هذا الانتظار

مع مرارته — إذ كان كأنه الأبد — لم يدم إلى ماشاء الله ، لأن القطار المنتظر جاء يتهادى من بعيد كأن سنة من النوم قد أخذته فاستقبلته صلصلة من علامات الرصيف وهمهمة من الواقفين ، واصوات الشيالين العمال تتبادل الملاحظات والأوامر .

الهجوم

وتأهب كل واقف لمهاجمة العربات ، كأن هذا القطار حبيب سريع الصد والهجران . وأشد ماتبدو الأنانية والقلق فى عيون هؤلاء الواقفين ، الذين ينظر كل واحد منهم إلي الواقف بجانبه كأنه غريمه اللدود ، ومنافس خطر ينازعه حق من حقوقه الثابتة .

وقبل أن يقف القطار كان بعض هؤلاء المجاهدين قد وثبوا على درجات العربات القريبة ، وقفلوا ممرات القطار بحقائبهم الكبيرة ، وراحوا يتخيرون أفضل الدواوين ، مع أن جميعها متساوية متشابهة وكلها خالية ، ولكن انانيتهم تسول لهم أن هنالك امتيازا وفروقا بين الاشباه والنظائر . حتى إذا انتهى الواحد منهم من اختيار ديوان من الدواوين نثر متاعه بين أركانه فوضع القبعة فى ركن والمعطف فى الركن المقابل ، وجعل حقائبه تحتل المقعد الآخر باكمله ، ثم وقف بنفسه على بابه كأنه أسد يحمى

عرينه من خطر المفاجأة ! وهو ينظر شذراً إلى كل من تسول له نفسه أن يقترب من الباب أو يحاول فحص المكان .

وترى من سماجة مثل هذا الرجل أن يدع مسافرا واقفا الساعات فى دهليز المركبة ، دون أن يجد من الحياء مايكفى لدعوة هذا المسافر الخجول لمشاركته فى الجلوس على مقعد تمدد عليه كأنه فى داره الخاصة .

ولو كان هؤلاء الثقلاء لايسافرون إلا نهارا لهان الأمر . ولكن المصيبة أن هناك أسفارا ليلية طويلة مملة لابد فيها من النوم والراحة ، ولا يمكن لمسافر مهما أوتى من رغبة فى التطلع إلى المحطات وما إليها أن يقف ليلة كاملة فى دهليز المركبات ، بينما يسمع شخير النائمين بجواره .

ومن العدل أن نقرر أن أولئك المسافرين الذين لا يبدأون رحلاتهم إلا فى منتصف الليل بعد أن يأوى كل مسافر إلى ديوانه مصدر من مصادر الفزع واقلاق الراحة ، لاسيما لمن كان حديثا فى الاسفار الطويلة . ولكن الحقيقة أن أكثر هؤلاء خلو من كل ذوق أو مجاملة .

بعد أن تجاهد النوم حتى الساعة الأولى من الصباح ،

وتطفىء أنوار الديوان وتسدل ستائره حرصا من البرد ، تفاجىء بما تحسبه فى أول أمره حلما مفزعا ، ولكن هذا الحلم يستحيل حقيقة أشد فزعا ، عندما تحس بمن يلكزك فى جنبك فتفتح عينيك فجأة على ضرر باهر كأنه الحريق وعلى مارد مفتول الشاربين يصيح بك أن أجلس بشىء من التأدب وينذرك أن تأخذ حذرك من الحقائب التى يضعها فوق رأسك ، والتى قد تهوى عليك إذا استسلمت إلى النوم والاضطجاع.

واذا كان هذا الرجل مسافرا الى محطة قريبة ، أو إذا كان من هواة القطارات فالبلية أعظم ، لانه قد يحلو له أن يجلس فى هذه الساعة المتأخرة من الليل يأكل وجبة كاملة ، أو أن يخرج من حقيبته كومة من المجلات والجرائد والقصص ، واحدة واحدة ؛ كأن الوقت العشية حين تحلو القراءة.

وفى ليلة من ليالى هذا الصيف قضيتها فى القطار من مرسيليا الى استراسبورج انتفضت فجأة بعد أن انتصف الليل على حركة شديدة وأصوات عالية و تدافع حولى ففتحت احدى عينى على نور الديوان القوى الذى أضىء جميعه فى تلك الدقيقة ، لأرى ثلاثة من الفرنسيين فى لباس الجيش وقد جلسوا يتسامرون ويدخنون.

ويأكلون ويغنون دون أن يرعوا مجاملة للنائمين حولهم . وليس لك في هذه القطارات الفرنسية أن تحاول توجيه نظر أحد إلى مثل هذه التقاليد ، لأن ذلك قد يدفع رفيقك الفرنسي إلى أن يأخذ حريته كاملة في المناقشة أو الغناء . . !

الرحيل

وفي أثناء هذا المرج شققت طريقي إلى المركبة القريبة ، وأودعت حقائبي أحد هذه الدواوين إذ لم يكن الزحام بالغاً شدته في تلك الليلة . حتى إذا انتهيت رجعت إلى رصيف المحطة أقتل الدقائق الباقية بفحص وجوه الراكبين في جميع درجات القطار ، على اكتشف وجها مقبولا أو سحنة معروفة .

ثم إنني أضعت دقائق في تقليب ما على عربة الصحف من مؤلفات وصحف وقصص ، حتى إذا انتهيت سألت صاحبها عن بعض مجلات لا يحملها في عربته ، ثم استحال الحديث إلى كلام عن الكتب ، فكلام عن اللغات ثم عن البلاد الأجنبية ، وانتهى بنا المطاف إلى الكلام عن إقامتي في برلين ذلك الصيف وعن رحلتي الراهنة إلى مصر .

ثم بدأت حركة رحيل القطار . فدوت فى الهواء خبطات أبواب المركبات يقفلها العامل واحداواحدا ، ثم أخذت الرءوس تطل من النوافذ لوداع المحطة إذ لم يكن هنالك من يودعونه ، ثم أخذ باعة الرصيف يجرون عربات الصحف والفاكهة والحلوى واللبن إلى قاعة المحطة ، منصرفين إلى رصيف آخر بعد أن ودعوا هذا القطار .

ثم انتهى الأمر بأن دوى الصفير إيذانا برحيل القطار ولمعت المصابيح الحمراء فى الظلام ، وأخذ القطار يتحرك خطوة خطوة .

ووقفت عند طرف العربة أطل من نافذة بابها ، وأتفرس وجوه الواقفين على الرصيف وقد بدءوا ينصرفون من أماكنهم جماعات وهم يتحدثون، وقد نسوا القطار وراكبيه وهو لم يترك بعد حظيرة المحطة .

و بعض هؤلاء المسافرين لاسيما من النساء ، لا يريدون أن يهجروا مكانا دون وقفة وداع ، ولا يهبطوا بلداً جديداً دون استقبال ، فإذا أعوزتهم الظروف راحوا يتسلون بإفشاء السلام على الواقفين على رصيف المحطة من عمال وبائعين ، يلوحون إليهم بالأكف والمناديل كأنهم أحباب فرقت بينهم الأيام .

ولم يكن بين أولئك المسافرين أو الواقفين من كان حقا فى موقف وداع ، فلم تكن ميونخ كبراين فى الليلة الفائتة وقد ازدحمت انهالتر بجمع وفير من المودعين ولم تخل ساعة الرحيل من دمعة حقيقية أو مصطنعة ، ولم يخل ذلك الموقف من مسافر متحمس راح يلوح فى الهواء حتى كلت ذراعه ، ولعله كان يودع المدينة جميعها .

حمى السفر

عندما تركنا برلين فى مساء الأمس ، كانت فى صحبتنا سيدة ترافقها طفلتها ؛ سيدة من أولئك السيدات اللاتى لا يردن إلا أن يفعلن شيئاً ؟ بالكلام أو الاشارة أو الحركة أو الملاحظة ، من اللاتى يبدو عليهن كأنهن ضقن بسر عظيم يردن أن يفضين به لأول من يقابلهن .

وكان بصحبتنا كذلك شاب لعله كان مسافرا إلى جنوب ألمانيا لقضاء الصيف بين أهله ، وكانت تودعه صديقته البرلينية .

فما بدأت دقائق الرحيل الأخيرة حتى اقتربت السيدة من النافذة حيث يتحدث الشاب إلى صديقته لتتكلم بعض من جاء لوداعها ، ولتكرر كلمات شكر وألفاظ حسرة لهذا الفراق ؛ وكلما

اقتربت ساعة الرحيل كلما زجت السيدة بنفسها فى النافذة ، حتى وجد الشاب نفسه بعد قليل خلف السيدة لايكاد ينظر إلاّ من وراء ظهرها .

وكان الشاب ككل فتى فى سنه حييا لا يجرأ أن يوجه نظر السيدة إلى حقه المغتصب ؛ لأنه عندما شعر بعجز حيلته خافّ الديوان وراح يتحدث إلى صديقته من باب العربة ، فما كان من السيدة بعد أن نجحت فى محاولتها ، إلا أن نادت على فتاتها واشتركت معها فى السلام والوداع .

وكنت تحس بان هذا الوداع تقليدى مصطنع ، فلا السيدة حزينة حقا على فراق هؤلاء الواقفين ، ولا المودعون صادقون فى وقوفهم هذا الموقف . وكانت السيدة تجاهد كثيراً في تمثيل هذا الدور — دور الوداع ؛ فكانت ألفاظها منتقاة وعبارتها تمثيلية بارعة ، لأنها لاتكادترى عيوننا متجهة نحوها حتى تمعن فى هذا التمثيل بحركات عصبية بهلوانية .

ثم جاء دور التقبيل ؛ فقبلت هذه تلك ، وتلك هذه ، وهذه هذه وهكذا ، حتى إذا انتهت الجولة ولم يتحرك القطار ، بدأن من جديد يوزعن القبلات بصوت أشد ارتفاعا .

وفى تلك اللحظة كانت السيدة قد أخرجت منديلها الأبيض لختام هذا الفصل . فما أن تحرك القطار واختلطت كلمات الوداع باصوات القبلات وهذه بالزواجر والتوصيات والنصائح مما يلقى فى مثل هـذا المقام حتى امتدت الأذرع إلى النوافـذ ترفرف مناديلها البيضاء .

وكانت صديقتنا أكثر المرفرفين نشاطاً وحركة ، وكانت كلما ابتعد القطار من حيث كنا وقوفا ، كلما زادت امعانا فى تمثيل هذا الدور الختامى وكانت عيونها تنظر إلى الواقفين على الرصيف وإلى غيرهم من المودعين ، وكانت كلما مرت بمودع متحمس ازدادت تحمسا ورفرفة بمنديلها . وفى تلك الأثناء كان أصحابها قد ولين ظهورهن واختلطن بالزحام فلم نعد نميز رجلا من امرأة ، ولكن السيدة أصرت على المثابرة حتى اختفت أنوار المحطة . . !

ثم ان الفتى عاد إلى مكانه قبالتى وبدأ كل واحد منا يتفحص وجه رفيقه فى السفر ويستنتج ما شاء له خياله وشاءت تجاربه . وما ان مضت دقيقة على جلوسنا حتى بدأت السيدة تفعل شيئا ، فأخرجت « فوطة » وراحت تغتسل استعداداً للسفر أو محافظة

على تقليد معروف بين المسافرين ، وإن لم يكن يبدو عليها مايدعو إلى الاغتسال والنظافة .

وما كادت تستقر فى مكانها حتى أنزلت حقيبتها وفتحتها بين أبصار الجالسين ، وأخذت تنبش جوانبها لتخرج مجموعة من الصور ، أخذت تتفرج عليها مع صغيرتها مبدية الملاحظات المناسبة عن وجوه أصحابها وصاحباتها ، ولم تكن لترفض أن تشركنا فى المشاهدة لو أن واحداً منا أبدى رغبة ما . ثم قفت على هذه الصور باخراج « منظار مقرب » راحت تجلوه بمنديلها وتجربه بالنظر إلى أركان الديوان وإلى الكتابة المدونة على أطراف الاعلانات الملصوقة . وهكذا أخذت تستعرض هذه الهدايا والتحف الرخيصة واحدة واحدة . حتى إذا انتهت أقفلت الحقيبة وفتحت كيسا من الورق به صندوق من الحلوى وطبق من الورق به أنواع من الفاكهة مما يباع فى المحطات ، وراحت تجرب كل لون من هذه الألوان بالاشتراك مع فتاتها وتتلوكه بلذة مصطنعة وتعقب على كل بلعة بكلمات الاعجاب .

ثم انتهى هذا الفصل وبدأت السيدة باخراج مجموعة من المجلات والقصص ، إذ أن التسلية بقراءة القصص تقليد قديم بين

المسافرين ليس لهذه السيدة أن تفوتها المحافظة عليه ، ولو كانت رحلتها قصيرة لا يتطرق إلى المسافرين فيها السأم ، ولكنها وقد حافظت على التقاليد السابقة من وداع المناديل ، والاغتسال ، واستعراض الهدايا والصور ثم الأكل ، ليس لها إلا أن تمثل هذا الدور استكمالا لفصول هذه القصة

حديث التذاكر

وفى أثناء ذلك دخل قارض التذاكر وكان أول من استقبله هذه السيدة بحركة تفتيش وسؤال عن تذاكرها فنبشت جيوبها وحقائبها ثم أبرزتها وقد وجدت من هذا البحث مادة جديدة للحديث شغلت بها الرجل حتى أنجز مهمته

فكان لزاما عليها أن تسأله عن صحة هذه التذاكر وعن موعد وصول القطار إلى محطة معينة ، ولم تكن إجابة الرجل داعية لقفل باب المناقشة إذ انها راحت تمتدح براعته فى حفظ المواقيت ، وتقارن بينه و بين بعض موظفى مكتب من مكاتب السياحة الشهيرة . وكيف أنهم جاهلون الجهل كله بنظم القطارات ومواقيت السفر وتدرجت من ذلك إلى توضيح مبلغ الخطر — فى الاعتماد على هذه المكاتب فى تنظيم الاسفار . ولعلها شعرت بعد إلقاء هذه المحاضرة وما تبعها من نصائح وملاحظات ان الصلة بينها و بين هذا الرجل

قد أصبحت وثيقة إذ أنها فتحت إحدى حقائبها وقدمت له سيجارة عربونا لهذه المعرفة فقبلها شاكرا ممتناً ، ولعل ذلك شجعها على التوكيد من صداقته ، لأنها أعقبت على السيجارة بأخرى . .

وما ان هدأ المكان بعد خروج الرجل حتى تلفتت السيدة إلى ما كانت تحمل من قصص ومجلات وراحت تقلب كل مجلة فلا تكاد تستقر عينها على صحيفة أو صورة حتى تنتقل إلى غيرها وهكذا حتى تأتى على آخر الكتاب فى دقيقتين . وكانت هذه القراءة تمثيلية على نسق ما سبقها من الأدوار

وكأنما شعرت بعد ذلك بتعب واجهاد من هذا التقليب ولا أقول القراءة ، إذ سرعان ما ألقت بجميع هذه المجلات واتكأت على المقعد محاولة الاستسلام إلى النوم ، ولكن هذا لم يدم كذلك إلا دقائق معدودات ثم فتحت عينها و بدأت تجمع متاعها المنثور وتعد عدتها للنزول ...

أجنبية

كان ذلك بالأمس فى الطريق من برلين إلى ميونخ .

والآن وقد بدت أنوار ميونخ تتلاشى فى ظلام منتصف



... النسيان

وكانت مفاجأة عظيمة ! وكان على أن اخلع ملابس النوم واجمع شتات متاعى المبعثر واقفل حقائبي واحمل كل هذا الى رصيف المحطة فى الدقيقة الباقية ...

الليل ، تركت النافذة ورجعت إلى حيث خلفت حقائبي فى أحد دواوين العربة .

وما أن وقفت على بابه حتى وجدت سيدة متمددة على أحد المقعدين وفرشت المقعد الآخر ببعض الملابس حيث رقدت عليها طفلة صغيرة استسلمت فى نوم عميق . ولاشك أن دخولى كان غيرمرغوب فيه لأن نظرات السيدة لم تكن تدل إلا على الغل ، ولكنها ـ جزاها الله ـ لم تدع لى مجالا للاسترسال فى التفكير لأنها بادرتنى باسمج سؤال تسمعه فى مثل هذه الرحلات الليلية

ــ ألم تجد لك مكاناً آخر غير هذا ؟

وكان جوابى على استفسارها عمليا ، لأننى أسرعت وجلست حيث تجلس ، بل ولم أحسب نفسى ضيفاً على هذه السيدة الرقيقة المزاج ، بل عملت على أن أحتل نصف المقعد كاملا ، فكان ذلك كافيا لأشعل فى جو الغرفة نار العداء الصامت ، وتعمدت أن أكون البادىء بهذا العداء كلما سنحت لى الفرصة .

وفى هذه الاثناء مرت بباب غرفتنا المفتوح سيدة تحمل حقيبة و باقة كبيرة من الأزهار تبحث عن مكان لها ، بيد أن

الحياء والذوق كانا يحولان بينها و بين دخول ديوان من هذه الدواوين، ولعلها شاهدت فى وجهى ترحيبا باشتراكها معنا (وإن كان هذا الترحيب فى الحقيقةليس إلامظهراً لروح المناوأة) لأنها تقدمت إلى الغرفة مستأذنة ، وماأسرع أن ساعدتها بوضع حقيبتها على أحد الأرفف . فبذلك قضيت على روح الملكية الفردية .

لم يكن لدى شك فى أن صديقتى الأولى أجنبية ، فقد رأيتها على رصيف ميونخ تكثر السؤال والاستفهام وتتلوك الألمانية تلوكا ، أما عن جنسيتها فلم يكن حدسى صادقا ، أما صديقتنا الخجول فلم يكن لتخفى شخصيتها النمسوية . .

ثم مرت ساعة ونحن جلوس لانكاد نتكلم الا ألفاظاً متقطعة غير منسجمة حتى أشرفنا على الحدود الألمانية ، فجاء رجال الحدود بملابسهم الخضراء يستوثقون مما يحمله هؤلاء النازحون من النقود ، بعد أن حرم القانون الألمانى كل هذا ، ووضع أقسى العقوبات فى سبيل من يحاول الاستهتار أو المغالطة .

أما أنا فكنت أوثق الجميع بمقدار ما أحمل من النقود الألمانية ، لأن ذلك لم يكن يعدو ماركا واحدا !

ولم يمر هذا الفحص بسلام ، لأن صديقتنا النمسوية أبرزت من النقود أكثر مما يسمح به هذا القانون الجائر ، وكانت بساطتها في الحديث وتأدبها في الخطاب وسماحة وجهها كافية لكي يرق لها عامل الجمرك في تطبيق قانونه الصارم ، ولكن كل ذلك لم ينفع ، فراحا يتحاوران ليبرر كل واحد منهما موقفه ، أما هي فكانت توضح جهلها وبراءتها بما ليس فيه مجال لشك أو ريبة ، وراح هو يفسر أصول هذا القانون ويلمح إلى مبلغ الخطر في التساهل في تطبيقه .

وكان ما عرض من الحلول قاسيا بها أو مجحفا بحقوقها إذ ليس من المنطق في شيء أن تسافر هذه السيدة دون نقودها ، ووراءها تذكرة لا بد من شرائها وأجور لا بد من دفعها حتى تصل إلى أهلها . ولكنها مع ذلك كانت مستسلمة لظروفها القاسية شأن النمسا نفسها ، بعد أن أهيض جناحها وأذل أنفها .

وعندما اقتربنا من الحدود وقفت السيدة على قدمها وعقدت أزرار معطفها وهزت باقة الأزهار البرية التي كانت تحملها ، ونظرت إليها بعطف حذرة أن تذوى ورودها قبل أن تصل إلى بيتها ، وقد قطفتها في صباح ذلك اليوم صديقة لها هدية إلى أمها

ثم توالى رجال الحدود يستعرضون الجوازات ويراجعون تذاكر السفر أو يستفسرون عما نحمل من متاع أو مال . وبعد قليل خلفتنا السيدة النمسوية بعد أن شكرتنا على كرم الضيافة وبعد أن دعونا لها برحلة موفقة . وبذلك رجعت إلى النضال وجها إلى وجهه مع الصديقة القديمة .

أى مشكلة هذه الحدود ؟ فلا يكاد القطار يسير ساعة حتى يقف ليودع بلدا وليستقبل آخر ، تودعه بعد أن تقف موقف الفحص والاختبار الذى تحيط به الظنون والريب ، حتى إذا خرجت بسلام من بين هؤلاء الذين كنت ضيفهم بالأمس ، استقبلتك وجوه جديدة بعيون أشد حرصا !

ثم أى معضلة هذه الجوازات ؟ عليك أن ترعاها فى أعز جيوبك ، وعليك أن تواليها بالأختام كلما عزمت رحيلا أو انتقالا وإذا قست عليك الظروف الطارئة فأضعت هذا الدفتر ، وجدت كل عين ترمقك بحذر وحيطة ، ووجدت قدمك قد تسمرت فى مكانها وإذا بك لاتتلفت إلاّ بإذن ولا تتحرك إلاّ تحت أعين أعمتها الشكوك بشخصك .

الجواز الضائع

ومنذ عشر سنين كنت فى الطريق من لندن إلى باريس

لقضاء عطلة الشتاء ، حتى إذا ما اقتربنا من الميناء الانجليزية نيوهيفن مر بنا العامل الانجليزى يوزع علينا بطاقات معينة نحفظها مع جواز السفر ، وشاءت الأقدار إلا أن أفتش عن هذا الجواز فلا أجده . فقد كان فى جيب المعطف وكنت أحمل المعطف مقلوبا . أما البحث فى الحقائب فلم ينتج ، وأما السؤال والاستفسار والاستقصاء بين عربات القطار فكان هباءً .

وصلنا نيوهيفن ظهراً وهرع كل مسافر الى الباخرة المنتظرة ووقفت أنا كاليتيم أنظر إلى هؤلاء الذين كأن أبواب الجنة قد فتحت فى وجوههم ، وتذكرت باريس وتذكرت مافيها من مراح ومتعة ، ونظرت حولى فى المحطة الخالية فكدت أبكى غيظاً . .

ثم أقلعت المركب وانصرف الشيالون والعمال الى بيوتهم وأصبحت المحطة بأبنيتها السوداء القاتمة قفراء مفزعة . وفى مطعم المحطة جلست أتناول الغداء وحيداً أتسلى مع الخادم بالحديث التافه أو لعلنى كنت سلوته يومئذ .

ولعل الأمل الضائع يولد فى بعض النفوس آمالا مفتعلة ،

لأننى أجمعت أمرى على أن أنزح الى برايتون وأُغرق نفسى فى لهوها ، وهى لا تبعد إلا بضع ساعة عن هذه الميناء الوحيدة . ولعل برايتون كانت تلك الليلة بهيجة وممتعة حقاً، حتى خبت أمام عينى أنوار باريس ؛ وحتى أحسست بأن من السخف أن أترك هذا اللهو المحقق فى سبيل أمل قد يكون وهما .

ولكن هذا الحلم لم يطل كذلك ، لأننى عرفت أن جوازى المفقود قد وجد فى لندن على رصيف ووترلو ، وأن هذا الجواز فى انتظارى ، ولكنى لم أحس بفرحة أو غبطة لهذا الحظ المفاجىء ؛ وفى منتصف تلك الليلة كنت فى وسط فوج جديد من المسافرين إلى باريس ..

على الحدود

ومنذ أعوام كنت فى الطريق من برلين إلى فينا ، وكان على أن أعد الجواز للسفر فى بلاد التشك ، ولأمر ما لم أجد فراغاً للقيام بهذه المهمة مع أهميتها وخطورتها ، بيد اننى لم أكن حريصا على الوصول إلى فينا ، وسواء على أؤ كرهت على البقاء عند الحدود مابين ألمانيا والتشك ، أم أكرهت على الرجوع إلى برلين فالمتعة لدى متساوية .

وعندما وقفنا عند الحدود بدأت اللغة السلافية تتطاير فى الجو بعض الشىء ، وراح عمال الحدود يفحصون جوازات السفر والأمتعة وقد حرم على المسافرين مغادرة القطار . فلما وصل الركب إلى غرفتنا وكانت غاصة بعدد كبير من المسافرين قدمت جوازى مقفلا بكل هدوء ورزانة ، وتركت العامل يبحث لكى يكشف عن خاتم المرور بين عشرات الأختام التى كان الجواز يوم ذاك غاصا بها ، حتى كان من المحال أن يعثر على مثل هذه الاشارة ، وما باله والاشارة مع تفاهتها غير موجودة !

ولعل الرجل شعر بحرج موقفه فقد قلب الجواز مرة وأخرى تحت أعين الجالسين الفاحصة ، ولعله أحس بأن افتقاد هذه الشارة ليس إلاّ عجزا منه لأن صاحب الجواز كان هادئا يقرأ . ثم نظر إلىّ مستفسرا فاجمعت رأيي يومئذ أن أتجاهل اللغة الألمانية وهى مايمكن أن يتحادث بها إذا استثنينا لغته السلافية .

فهززت رأسى متجاهلا ، وتداخل بعض الجالسين لتفسير مايريد الرجل إيضاحه ، فوقفت كالصخر الأصم أدير الرأس بينهم مبتسما باصطناع ، فسألنى الرجل أن أتبعه إلى مكتب المحطة وهناك وقفت بين خليط من رجال الشرطة ورجال الحدود وعمال المحطة

وراح كل واحد منهم يفصح لى عن غرضه بانجليزية أقرب إلى الألمانية ، وفرنسية أقرب إلى السلافية ، أو يفسر لى بالاشارة والتمثيل حتى ضاقوا ببلاهتى ذرعا ، وبدا فى عين رئيسهم الضجر والغيظ ، عند ذلك لم أجد بدأ من الفهم !

وكم كان سرورهم عظيما عندما بدأت أتلوك ألفاظا من هنا ومن هناك جعلتهم يثقون بقدرتى على الفهم ، لاسيما عند ما أخرجت ورقة مالية لدفع الضريبة المقدرة ، فكان هذا الفصل التمثيلى كافيا لانصراف أذهانهم عن مطالبتى بغرامة ، أو التشديد فى حجزى حيث كنا حتى يبت فى أمرى .

وقد حدث ذلك مرة لصديق إيطالى متمصر ، وقد كنا فى الطريق من تورين إلى باريس ، وعندما وقفنا على الحدود الفرنسية تحت ثلاجات الألب المنحدرة فوق رءوسنا طاف بنا رجال الحدود ولسبب ما حامت الشكوك حول هذا الايطالى ، واستحال الاستفسار إلى مجادلة ، واستحالت المجادلة إلى مناقشة حادة ، فأصر الرجل على أن يغادر الايطالى القطار عند هذه المحطة ، وهكذا كان ، فقد حمل حقيبته وهو يرغى ويزبد وبقى فى هذه المحطة النائية القارصة ينتظر الأقدار . بيد أننا فى صباح الغد وجدناه حيث تواعدنا فى باريس .

لعل الليل والوحدة وهذه الطفلة النائمة قد قرب ما بينى وبين هذه السيدة ، لأننا بدأنا نتبادل بعض الملاحظات التى لم تكن تخلو من ألفاظ المجاملة .

وعندما وقفنا عند حدود النمسا وأخرجنا جوازات السفر بدأت شخصية جارتى فى الوضوح وكان ذلك مما دعانى إلى التقرب إليها لا رغبة فى صداقتها ولكن طمعا فى اثارة خبيئة نفسها ، واثارة ما أحمله نحوها من موجدة وضغينة منذ النظرة الأولى كما تثار عواطف الحب سواء بسواء !

لم يكن عجيبا أن تحنق هذه السيدة على كل شىء ، لأنها كانت تحس بأن لا وطن لها تدافع عنه وتفخر به ولو كذبا ورياء ، كما جرت بذلك التقاليد فى دنيا الوطنية .

كانت صديقتنا ايطالية المولد ، مصرية النشأة ، ألمانية الجنسية . إيطالية بحكم أبويها وأجدادها ، مصرية بحكم مولدها فى مصر ونشأتها فى مصر ، ثم لعلها لم تكتف بهذا الازدواج فراحت تتزوج ألمانياً لتصبح ألمانية فى يوم وليلة .

لهذا لم يكن عجيباً أن تثور ولو مرة على كل صفة من صفاتها

الثلاثة ؛ أما ثورانها على مصريتها فأمر بديهى هين ، فكانت تذكر مصر كما يذكر الأمريكى المليونير منجما يملكه من مناجم الذهب فى صحراء المكسيك لاتربطه به إلا روابط الملكية ، ولا يذكره إلا فى صورته البشعة المفزعة التى يذكرنا بها نزلاؤنا الأصدقاء فى أوربا . أما لغة هذا البلد الذى ولدت ونشأت فيه فهى كاللاتينية لا يذكرهاذاكر إلافى معرض درس أومذاكرة !

وكانت ثورتها على صفتها الألمانية ، لوناً آخر من ألوان الجحود ، إذكانت أيامها فى موطن زوجها صورة من صور الشقاء النفسى فكانت مريضة سقيمة كارهة متبرمة ، لقد اتحد ضدها الهواء والنور والماء فكتم أنفاسها وذوى وجناتها وهدّ أكتافها. أما الطعام فكان غثا سقيما لا يأكله إلا من فقد أبسط مراتب الذوق فى اختيار غذائه ، اما الناس فليس فيهم من يصلح لأن يكون رفيقا ودوداً ، كلهم جبناء مراءون كذابون أنانيون فى أبشع صور الأنانية !

لقد كانت تحس بين انسبائها كأنها فريسة بين قطيع من الذئاب تحس بأنهم سخفاء حتى فى محاولتهم العطف عليها ، عطف كله رياء ومخاتلة ؛ لقد عقبت على القصة بالقصة ، والملاحظة

بالملاحظة ، لقد بدت سعيدة لتخرج من هذا السجن الألماني .
هكذا كان شعورها نحو الذين تحمل جنسيتهم وتلبس شعارهم .

أما ايطاليتها فكانت موضع فخرها تلك الليلة ، وكلما أدلجت في أطرائها ، كلما أدلجتُ في مناوأتها ومحاولة استثارة مظاهر جحودها ونكرانها ، حتى جعلتها تثور على ايطاليتها .

الاجانب في بلادهم

وضيوفنا الأجانب لايذكرون مصر بالخير إلا إذا رحلوا إلى أوطانهم دون أمل في رجعة إلى هذه الديار . وهؤلاء فقط يذكرون هذه البلاد بالخير ، وينظرون إلى حياتهم على ضفاف النيل كحلم سعيد سرعان ماانقضى ولو كان سنين مديدة .

وهؤلاء إذا صادفهم المصرى التائه فى قعور بيوتهم ، يجد منهم كل ترحاب ، أو لعل هذا التائه يستثير فى نفوسهم ذكريات حبيبة قريبة إلى نفوسهم ، لا لسبب سوى أنها ككل ذكرى لا أمل فى رجوعها .

فى ليلة من ليالى الشتاء هبطت « توركاى » مشتى انجلترا الفاخر الذى يطلقون الرفييرا الأنجليزية . وكانت المدينة فى تلك الليلة

غاصة مزدحمة بالوافدين عليها ، حتى أننى لم أجد بدا من أن أطرق أبواب الفنادق بابا بابا دون تمييز بين درجات هـذه الفنادق وطبقاتها ، وأكثرها ارستقراطى فاحش فى أثمانه ، وتقدم الليل وأنا بين بحث وتنقيب حتى انتهى بى المطاف إلى فندق توجه صاحبه باسم هوليوود وزين به بعشرات من المصابيح القوية حتى غدا كأنه فى ليلة عرس .

فى هذا الفندق قابلت مستر جونس ، وكانت مصريتى كفيلة بأن تفتح لى صدر الرجل الذى حمل حقائبى وهو يتعثر بثقلها وراح يتقدمنى إلى الطابق الثالث ، ويذكر لى أنه كان مديراً لبعض الإدارات المصرية الحكومية ، ولم يثر مقدمى فى نفس هذا الرجل الكريم روح الحسرة أو الأسى لعهده الذهبى الراحل فى مصر ، بل كان على العكس من ذلك فخوراً بماضيه راضياً بحاضره ، مزهوا بضيافتى ، أكرم وفادتنى وأحسن قبولى .

وفى ليلة قريبة من ليالى الصيف كنت فى روما . وكان علىّ أن أنتظر القطار السريع إلى باريس وهو لا يبرح العاصمة الإيطالية إلا فى منتصف الليل . وكان علىّ أن أجد ما أقتل به هذا الوقت

الطويل بعد أن أُرتجت أبواب المتاجر وخوت الشوارع من روادها ، فتخيرت داراً رقيقة من دور السينما على كثب من المحطة لأقضي فيها ساعتين طويلتين وأريح قدمي المتعبة وأتبلغ ببعض مااشتريت من زاد وفاكهة في ظلمة المكان .

وإلى جانبي جلس رجل أصلع متقدم في السن رقيق الحال سرعان ماانقدت عيناه ملامحي ، فراح يتحين الفرصة للكلام وسرعان ما انتهزها فبادرني الحديث بالإنجليزية دليل على أنه واثق من أنني أجنبي ، وانتهى الكلام إلى ذكر موطني . فما أن سمع الشيخ الجواب حتى ترك حوادث الرواية وتوجه إلى يستزيدني حديثا وكلاما عن مصر ، التي تركهامنذ ربع قرن وهو في حنين متزايد وشوق أكيد الى الرجوع الى أحضانها وقد كان بيننا مهندسا ميسوراً ، أما عن حاضره فلم أسأله لأن ملابسه ولأن رنة الحسرة في حديثه كانت كافية لتدل على أن مهندس الأمس ليس رجل اليوم . . .

وفي ووستر كنت مرة ضيفاً للشاي في حفل مدرسي ، وكان الزائرون منتشرين في حديقتها طوائف يتعارفون ويتسامرون

جريا على العادة الانجليزية فى محافل الشاى ، و بينا أنا بين هذه الحلقات طلب منى صديق أن أقدم نفسى إلى سيدة حريصة على هذه المعرفة ، وكانت السيدة من أولئك العجائز اللاتى كن فى مصر منذ ثلاثين عاما ، اللاتى مازلن يتحدثن عن هذا العهد القديم بلهجة الواثق المتأكد ، كأنهن يتكلمن عن موسم الشتاء الأخير فى مصر .

ولعل إجابتى عن حال مصر الراهنة ووصف مظاهر نهوضها وتمدنها ومسابقتها الغرب ، استفز السيدة أو لعله جعل معرفتها عن هذه البلاد تبدو أقرب الى الخرافة ، لأنها راحت بحماسة تصف لنا مصر التى عرفتها باوحالها وحاراتها وأقذارها . .

وكأنما أرادت أن تؤكد للسامعين مدى هذه المعرفة فلم تدع مجالا للمناقشة أو التفاهم ، وكلما أردت اقناعها بأن مصر الأمس غير مصر اليوم ، وأن هذه الصور التى تعرضها لم يعد لها مجال فى حياتنا الراهنة ، لم يزحزحها ذلك من اعتقادها عن أساليب الحيـاة التى عرفتها منذ ثلث قرن أو يزيد

وكيف لنا أن نغير هذا التراث وهو ميزة من الميزات وأعجوبة من الأعاجيب التى تحاك حوله القصص والحكايات ؟

وصادفت مرة على مركب يونانى صبيا من هذا الشعب النزيل يذهب إلى بلاده لأول مرة ومثله فى ذلك المئات ، قلت له ألست الآن مصريا إذ ولدت وعشت فى مصر ولم تر بعد بلدا سوى هذا البلد ؟ أما عن هذا المنطق فلم يقره وأما عن يونانيته فهو فخور بها وأما عن الفرق مابين البلدين فذلك أن اليونان خالية — كما يسمع من أهله — من لابسى الجلابيب ، إذ جميعهم من أصحاب البذلات والسراويل وهذا فى ظنه فرق واسع بين حياة شعب وحياة آخر .

وقد تقودك الصدفة لأن تقابل شخصية ظريفة من هذه الشخصيات . وأذكر مرة ان كنت أتناول العشاء فى مطعم الكورنرهاوس المعروف فى لندن بصحبة الصديق الظريف الأستاذ غ ... ولعل أنوار المكان الزاهية وموسيقاه البديعة ووجوه الجالسين والجالسات الفاتنة جعلتنا فى نشوة مرح وسرور !

وجلس إلى جانبنا جماعة من الأنجليز يتناولون العشاء فى مثل

هذه النشوة التى جعلتهم يتحللون من قيود التحفظ و يتبادلون معنا الملاحظة الظريفة دون معرفة سابقة ، وكان من بينهم شاب كان يوما ما جنديا فى مصر فأصابته نشوة مرح شـديدة عندما عرف بحقيقتنا فراح يسلم علينا بشوق وغبطة لاشك فيها ،

ولم يرد تأكيداً لهذه المعرفة إلاّ أن يتكلم معنا باللغة العربية ولكن ذاكرته خانته إذ لم يتصيد من مفرداتها المندثرة إلا كلمة «قوى» وراح يردف كل جملة انجليزية ينطق بها او عبارة عربية نتحدث بها بهذه الكلمة . فلما سألته عما إذا كان لديه شيء من الكبريت (وذكرته بهذا اللفظ بالأشارة إلى علبة الثقاب الفارغة) ، ما كان منه إلا أن وثب على قدميه وقدم لى علبته مؤكدا علىّ بقبولها بقوله « كبريت قوى » . . .

ومازلت إلى اليوم كلما أقابل صديقى الأستاذ غ ... ويعرض علينا ما يذكرنا بالثقاب أن نذكر « كبريت قوى » ونذكر تلك الشخصية المرحة . .

ومنذ عشر سنين عندما هبطت لندن للمرة الأولى ، كان مما ذكرت بأخذ الحيطة منهم طائفة الحلاقين ؛ وكان حلاقى الأنجليزى الأول فى حى « المتحف البريطانى » وحدث أن كان



لكل مسافر اسلوب خاص فى النوم ..

هذا الحلاق ممن عملوا يوما فى فنادق القاهره الكبيرة ، وكان لهذا السبب حريصاً على رعايتى فى القيام بمهمته ولهذا السبب استسلمت إليه ، فلما انتهى من ذلك طلب منى ثلاثة وعشرين قرشا ، فصعقت من هذا التقدير إذ لم أحس بأن ما فعله بشعرى يستحق مثل هذا المبلغ ، فتأكدت بأنه قد استغل هذه المعرفة فى مصلحته فخرجت دون أن أنفحه شيئاً مما جرت العادة به ، مع شدة ماحبانى به من الاحترام والعناية عند وداعى ، ظانا أن هذا الاحترام ما هو إلا فصل من الدور الذى يمثله ، ولكننى لم أعرف إلاّ متأخراً أن الرجل كان صادقا فى تقديره ، وان خطأى كان فى تخير هذا الحانوت الفاحش ! والان نعود إلى حكاية القطار . .

ليالى القطار

لكل مسافر أسلوب خاص فى النوم .

فبعض المسافرين ينامون مباشرة إذا ماتحرك القطار ، فلا يكادون يسندون ظهورهم إلى المقعد حتى تغفى عيونهم . وهؤلاء لايزعجهم خاطر ولا ضجيج ولا حركة ، بل لعل ذلك كله يعمل على استسلامهم فى النوم العميق الهنىء . وإذا حدث ماأيقظ

الواحـد منهم لاتراه يفتح عينه إلا بمقدار ، فاذا انتهى أسـبل جفنيه ونام هادئا من جديد !

وترى الواحد من هؤلاء المسافرين لايتورع من أن يتكىء على جاره وأن يثبت عنقه على كتفه كالطفل الصغير بجانب أبيه . وقد يحدث أن يكون الجار من الصنف الذى يقطع ساعات السفر فى القراءة والمطالعة ، والذى لا يكتشف إلا أخيراً هذا الرأس المحطوط على كتفه ، وقد يثقل عليه أن يزعج جاره فتراه يحمل هذا الثقل ساعة وهو كاره ، حتى يأتى من ينقذه بايقاظ جاره النوّام .

و بعض المسافرين يتحايلون على النوم تحايلا ، فيجهدون عيونهم فى القراءة ، والقراءة الليلية فى القطارات مضنية منهكة ، وقد يعمدون إلى إطفاء الأنوار وقد يحملون معهم وسادة أو غطاء صوفيا ثم يغمضون جفونهم ، ولـكن رءوسهم تبقى عاملة مفـكرة حتى يصبح النوم مجهدا مملا ، فيقومون فزعين إلى خارج الغرفة يسيرون فى طرقة العربة جيئة ورواحا وهم يدخنون السيجارة بعد السيجارة .

ولبعض المسافرين عاداتهم الخاصة عند النوم .

فمنهم من لا ينام إلاّ إذا لف رأسه بشال من الصوف ، و إذا أعوزه ذلك خلع سترته وغطى رأسه بها . ومنهم من لا ينام إلا إذا خلع حذاءه ولبس شبشبا يحمله عادة لهذا الغرض .

وفى ليلة من الليالى كنت مسافرا فى القطار الأخير من برلين إلى ليبزج وكان معي رفيق ألمانى من هذه الطائفة التى تعنى بحمل الشباشب الأنيقـة فى السفر ، فما أن سار القطار ساعة وأطفأنا الأنوار حتى أتم الرجل هذه المهمة فاحسست براحة من ذلك ؛ فعمدت الى تقاليده فخلعت حذائى ومددت قدمى إلى المقعد الآخر حيث ينام . وكنت ألبس فى ذلك اليوم جوربا جديدا ، ولعل كثرة تجوالى في ذلك اليوم الصائف قد جعل رائحة ذلك الجورب غير مرغوب فيها دون أن أعرف ذلك ، لأن صاحبى لم يتورع من أن يهب من مرقده وينبهنى إلى حمايته من هذا الجورب . فلم أجد بدا من أن أعود إلى لبس حذائى مرة أخرى ...

و بعض المسافرين لا يغمض لهم جفن إلا إذا نام الواحد منهم منكفئا على وجهه ، ولهم فى ذلك أسلوب خاص فهم يرتبون حقائبهم

واحدة فوق الأخرى ما بين المقعدين المتقابلين ويضعون رءوسهم بين أذرعهم ويستسلمون الى النوم . وقد ينفرد بعض هؤلاء بوضع أذقانهم فى اكفهم كمن يفكر تفكيراً عميقا ، وانك لترى على وجوههم مسحة من الجفوة والشدة التى قد يدارونها فى يقظتهم ولكن عيونهم المقفلة لا تدع لهم مجالا لمثل هذا الرياء

وقد يستولى القلق على المسافر فيغير من جلسته فى كل دقيقة حتى تحس بأنه يجاهد أمراً عسيراً مستعصيا . فقد يحاول النوم مغطيا رأسه بمعطفه مدسوسا فى ركن المقعد ، ولكن هذا الوضع سرعان مايغيره فيضع المعطف على ركبته ويكتفى بوضع منديل على وجهه ويعقد ذراعيه على صدره كمن يصلى . ثم تشعر بعد قليل بان هذا الوضع لم يرح صاحبه الذى ينزع المنديل ويضع المعطف خلف ظهره ثم يدس يديه فى جيوبه واضعا ساقه على الأخرى ، ويحاول النوم هكذا ، وهو أقرب فى وضعه من الجالسين فى مقهى يستمعون للموسيقى !

بيد أن بعض المسافرين لايغمض للواحد جفن مالم يسند جنبه إلى المقعد ، أما النوم وهو جالس فى أى وضع من الأوضاع فيزيد

من محنته ويساعد على أرقه . ولما كان من العسير فى الكثير من الأحيان أن يجد المسافر فى هذه الرحلات الليلية مقعدا خاليا بأكمله ليتمدد عليه فى الوضع الذى يناسبه ، كان تحقيق هذه الأمنية عسيراً .

وقد يكتفى الواحد من هذه الطائفة بأن يبتكر من أوضاع النوم مايجمع مابين الجلوس والاضطجاع ، فيجمع المسافر ركبتيه إلى صدره ويدس رأسه إلى ركبتيه ويطوق ساقيه بذراعه وينام هكذا متكورا ، غير أنه لما كان يعتمد فى أسلوبه هذا على عضلات ذراعيه التى تجمع مابين رأسه وصدره وساقيه لهذا كان هذا النائم فى خطر دائم من الجالسين إلى جانبه ، وذلك إذا احدث ولكزه أحدهم بذراعه دون قصد ، تفككت وحدته وتبعثر ماضم من أطرافه !

مفاجئات الليل

وكان نصيبى من النوم فى تلك الليلة موفورا ، بعد أن احتللت نصف المقعد وأعددته اعدادا مناسباً لليلة طويلة لاسيما بعد أن بدأت ساعات اليوم الجديد ، إذ من غير الجائز أن يفد علينا وافد فى الهزيع الأخير .

وفتحت حقيبتى الصغيرة لأودع ربطة العنق وياقة القميص مابين كتابين حتى تحتفظ بشكلها فى الصباح . وفيما أنا أرتب ذلك فى الحقيبة عثر أصبعى بشىء لازق فى قاعها ، فما رفعت زجاجات الدواء حتى أبصرت معجون الأسنان وقد انسكب من فعل الضغط وتلوث به جميع ما كان في الحقيبة من أوراق وكتب وأدوات ومناديل وأقلام .

وانسكاب أنابيب الحلاقة والأسنان أو زجاجات الحبر أو اليود من أسمج مايمنى به مسافر ، ومن أخطر ماتمنى به الحقائب والملابس والأوراق ؛ فاذا اكتشفت الفاجعة فى وقت مناسب فقد ينجو بعض هذا المتاع من فعلها ، أما إذا تركت هذه الزجاجات المفتوحة أو الأنابيب المضغوطة حتى الصباح ، عند ذلك تعرف معنى الفاجعة وأنت تنظر إلى وجه المسافر الذى يفتح حقيبته إعدادا للاغتسال والنظافة ليجـــد أدوات النظافة والاغتسال نفسها فى حاجة إلى الرعاية !

وبعد أن استنفدت ما كان معى من صحف في تنظيف هذه المادة الصمغية اللزجة ، لففت رأسى بشال صغير من الصوف

واتكأت إلى ركن المقعد وتمددت بنصفى السفلى، فكنت نائما جالساً !

وأذكر أننى استيقظت مرات عدة في تلك الليلة ، كلما وقف القطار أو فتح باب الغرفة أو أضيىء نورها ولكننى كنت أحس بالضوء بجفونى المقفلة ، وعندما بدأ بصيص الفجر ينفذ من خلال النافذة أزحت الشال من وجهى قليلا وتلفت لأجد إلى جانبى ضيفا يستغرق فى النوم ، لست أدرى متى هبط علينا وكيف جلس إلى جانبى ، بعد أن أزاح أقدامى إلى الأرض دون أن أحس بقدمه أو أشعر بوجوده .

وهذه المفاجئات مما تتميز بها قطارات الليل ، لأن ضيوف الليل طبقة خاصة من المسافرين . وقد حدث أن كنت وصديقى الأديب ر.. نسافر فى القطار الليلى من بروكسل إلى كولون ، وفى الساعة الواحدة دخل علينا مسافر لم يرد إلاّ أن يقلق مضجعنا وكان يحمل حقيبة مربعة وضعها تحت مقعدى وما أن أطفأنا الأنوار وحاولنا معاودة النوم حتى سمعت وصوصة من تحت المقعد استحالت إلى هدير ، وذلك أن صديقنا كان يحمل فى حقيبته المربعة أزواجا من الحمام ! الشىء الذى يستحيل حدوثه فى غير هذه القطارات الليلية . . !

كان إسفار الفجر فتانا ، وكان الصبح الأول بديعا ، وأنت ترقب العالم الفسيح بجباله المتوجة بالثلج ، وبحيراته الساكنة ، وغاباته الداكنة ، وقراه الحمراء النائمة ؛ ترقب هذه الدنيا من كوة سحرية تفتحها بأصبعك فى زجاج نافذة القطار وقد غطاه الندى والدخان بطبقة كثيفة حاجبة لاستراق النظر .

ليس شيئا أبهج من استقبال الفجر فى هذه البرارى الفتانة برارى التيرول ، ولعل للفجر جماله فى كل مكان ، ولكن المسافر كالعاشق أشد الناس غبطة باستقبال النور إذ أن ليل المسافر كليل المحب يسهره حتى يجهده السهر .

وتتلفت حولك فى الغرفة ؛ فتحس بشىء من الحسرة والانقباض ، كأن فى هذا المكان عرس حفل به الليل ثم انفض ، تلمح المصباح الكهربائى الذى ترك إلى هذه الساعة وهو لا يضىء إلا نفسه كأنه شمعة فى معبد ؛ وترى المقاعد والحقائب وقد علتها غبرة السفر فبدت قذرة كأن يدا إنسانية لم تلمسها منذ سنين وتعجب كيف كانت هذه المقاعد الجلدية متألقة فى الليل !

ويعمد بعض المسافرين إلى الافطار بشهية مفتوحة ، ولكن هذا المسافر قليل نادر ، لأن السهر بطبيعته يشجع على الأكل والأكل يشجع على التدخين ، فاذا أصبح المسافر وقد لمسه برد الليل فى طرف من أطرافه لم يعد يحس بحاجة إلى طعام أو شراب أو تدخين ، وقد يبس حلقه ومرر فمه ، وانسدت مسالك أنفه بالتراب ! وقد يجدى فى هذا المجال القليل من القهوة ، أو قد تستحب تفاحة لقتل هذا الشعور .

وتبدو وجوه المسافرين فى الصباح الباكر كالحة ليس لها لون معين ، وكأن ذقون الرجال قد ترعرعت كثيفة فى ساعات الليل فأصبحت وجوه أصحابها مقبضة كريهة ، وقد تكورت العيون واحمرت من السهر وتجمعت شعيرات الجفون وتصمغت .

وليست وجوه المسافرات فى هذا التشويه أقل نصيبا ، لأن أصباغ الليل تصبح وقد امتزجت بالعرق والتراب تحت فعل العوامل الليلية وسيلة من وسائل التقبيح ، وقد اغبرت جدائل الشعر وأضحت منكوشة منفوشة ، وتكسرت ثنيات الملابس وتهدلت الجوارب الحريرية المحبوكة وسقطت على الحذاء القذر حتى تغدو المرأة أكثر انقباضا وأشد فعلا على النفس من الرجل !

أقبلت الساعة الحادية عشر ،

وأقبل المسافرون يعدون حقائبهم ، ويعدون أنفسهم لمغادرة القطار بعد رحلة طويلة وليلة مجهدة .

وليس من اليسير أن تعد نفسك اعداداً محترماً بعد سفرة طويلة وليلة مجهدة ؛ فمهما حاولت العناية أثناء نومك برعايتك ملابسك حتى ولو دعاك ذلك إلى إقلاق راحتك فى الجلوس أو النوم فالنتيجة واحدة لامفر منها ! فالمعطف لابد وأن تتثنى أكمامه ، وتتلاشى ثنية السروال وتحل مكانها انبعاجة قبيحة عندالركبتين !

وهذا الطابع قلما يخطىء حقيقته أحد . وترى المسافر يعمل كثيراً لكى يتحلل من قيده هذا إذا هبط مدينة من المدن ولكن محاولته لاشك فاشلة ، إذ أن هذه الثنيات التى تحملها ملابسه تجعل له لونا مميزا وجواً خاصاً يعرفه به خدام المقاهى جد المعرفة !

وليست الملابس التى يُعنى أصحابها بحفظها فى الحقائب أبعد من الاحتفاظ بهذا الطابع الذى تتميز به ملابس المسافرين ، لأن هذه الملابس المطبقة فى الحقائب تحمل أيضاً طابعها المميز فهى بثنياتها المنظمة المتقاطعة رأساً وعموداً ، تختلف عن مثيلاتها التى

لا يصيبها مثل هذا الحظ من العناية ، و إن كان الجو الذى تفيضه على أصحابها سواءً في الحالين !

وتنسيق الملابس فى الحقيبة فن من الفنون ، لا يعرف سره إلا قليل من رواد الأسفار ، فهؤلاء وحدهم يعرفون جغرافية الحقيبة ، و يعرفون التقاليد فى صف محتوياتها المتباينة المتنافرة ؛ يعرفون كيف يحتفظ المسافر بربطات العنق و بالمناديل سليمة من عمل الحذاء أو الشبشب الذى قد يجاورها ، وأنهم ليعرفون كذلك كيف يضعون الأزرار وما شابهها بحيث يكتشفونها إذا أرسلوا أصابعهم فى الظلام !

وأنا من الذين يجيدون هذا الفن و يعرفون دقائقه وأسراره ، فن تنسيق الحقائب و إعدادها على وجه السرعة . فقد أسهر الليل إلى هزيعه الأخير ، فى ليلة سفر طويل دون حاجة إلى أن أقتل اليوم والليلة فى جمع ما أنا فى حاجة اليه ، أو فى ترتيب الحقائب التى أحملها . إذ أن ذلك لا يعوز منى إلا دقائق قليلة ،

وهذا الفن يخلقه المران وكثرة التجارب فى السفر . لأن المسافر

قد يهبط مدينة ليقضى ليلة واحدة فيها فإذا لم يكن متمكنا من هذا الفن فمن المؤكد أن يكون فى خطر داهم من فوات القطارات وضياع الوقت

ولكن هذه الثقة بالنفس لها أخطارها ولا شك ، فالنسيان خطر مفزع لكل مسافر عجل كثير التنقل والتجوال ، وأنا من الذين يعيشون في وجه هذا الخطر الداهم ، مهما حاولت ومهما جاهدت فى دفعه

حكايات النسيان .

أذكر مرة أن كنا فى رحلة سريعة فى بلجيكا تنقلنا أثناءها بين مدنها ومصايفها حتى انتهى بنا المطاف إلى مدينة بروج التاريخية ، وكان موعد القطار إلى بروكسل الساعة الثالثة . وكنا نتناول الغذاء فى مطعم شبيه بمطاعم البندقية به موسيقى عازفة وتكثر به وجوه الأجانب من انجليز وأمريكيين فشجعنا ذلك على التسويف والمماطلة ، وعندما حملنا حقائبنا إلى المحطة فى عربة من عربات الخيل العتيقة ووصلنا إلى حيث القطار ونحن نتصبب عرقا من صيف ذلك اليوم ، اكتشفت أن آلة التصوير بحقيبتها مفقودة ، ولما لم تبق إلا دقائق خمس على مغادرة القطار كدت أفقد كل أمل فى البحث عنها ، ومما زادنى إهمالا أن كان

رفيقى فى حالة نفسية ثائرة فجلس فى مقعده دون أن يبدى اكتراثاً أو عطفاً أو عناية بأمر هذه المصيبة الطارئة

ولعل هذه النكاية قد دفعتنى إلى الحماس والمخاطرة حتى بفوات هذا القطار على أن استأنف سفرى فى قطار الليل . ولكن شاء الحظ الباسم — وما أندر ذلك — أن أجد هذه الحقيبة فى العربة وقد وقف صاحبها دون أن يعرف سرها إلى جانب المحطة..!

لم تبق إلا نصف ساعة على الوصول إلى تريستا . وكان على أن أعد نفسي لرحلة البحر واستقبال من قد أجدهم من أصدقاء على الباخرة . وفى مثل هذه الساعة يكون من العسير أن يجد المسافر فرصة لإعداد نفسه ، لاسيما وأن الرفقاء من المسافرات يعملن على احتلال المغسل ولا يجزعن من صف الواقفين المنتظرين . ولهذا السبب يستيقظ بعض المسافرين فى الساعة المبكرة والناس نيام للاختلاء بنفسه وإعداد ملابسه وحقائبه على مهل .

كان بديهيا أن أجد المغسل فى هذه الساعة المتأخرة خاليا من كل شيء ؛ فالصنابير لا يسيل ماؤها إلا قطرات ، وصندوق

المناشف قد استحال إلى كومة مبللة . وزجاجة الصابون السائل قد فرغت . وكان ما يعنيني أن أعد نفسي للحلاقة ، فما أغلقت الباب حتى اكتشفت أنني قد نسيت أنبوبة الصابون ، ولما كان من الصعب أن أرجع ثانية والمنتظرون على الباب ، عزمت على الحلاقة بغير صابون : حتى إذا ظننت أنني قد انتهيت ونظرت إلى المرآة دهشت لوجود منابت الشعر سوداء كما هي ، وعندما فحصت آلة الحلاقة ، ما كان أشد عجبي عندما وجدتها خالية من الشفرة ...!

الحذاء المفقود

وليس أكثر عندي من حوادث النسيان المفاجئة . فمنذ سنين كنت في القطار من لوزان إلى البندقية وكنت أعرف أن ذلك القطار يسير مباشرة إلى هذه المدينة دون حاجة إلى تبديل .

ففي الساعة السابعة صباحا وصلنا ميلانو . وكنت إذ ذاك نائما ولم أرد اليقظة لولا شدة الجلبة والضجيج والصفير في بهو هـــــذه المحطة العظيمة ، وكانت إلى جانبي سيدة إيطالية رافقتني في هذه الرحلة من لوزان ، وكنت ألاحظ أنها تحاول توجيه نظري بالايطالية التي لم تكن تعرف غيرها . إلى حقيقة معينة ولما لم أبد إكتراثا استحال تلميحها إلى تصريح

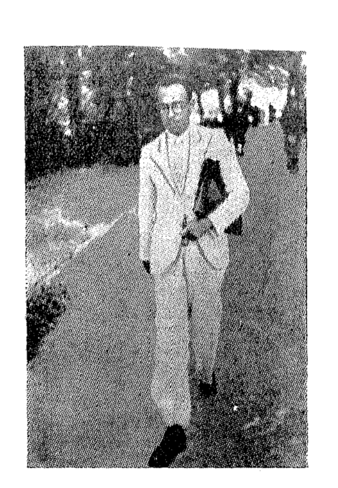
وكلام بالإشارة ، وفى الدقيقة الأخيرة هبطت على فكرة وكأنها الوحى وهى أن هذا القطار ذاهب إلى غير البندقية ! وكانت مفاجأة عظيمة وكان على أن أخلع ملابس النوم وأجمع شتات متاعى المبعثر وأقفل حقائبى وأن أحمل كل هذا إلى رصيف المحطة فى هذه الدقيقة الباقية ، وكان ذلك . ولكننى لم أكد أحتل مقعدى فى قطار البندقية حتى اكتشفت أننى قد نسيت أكثر من شىء واحد ؛ لقد نسيت الحذاء كما نسيت شالا من الصوف وأكثر ما ساءنى ، أننى نسيت أيضا صندوقا ممتازا من الشوكلادة كنت اشتريته فى الليلة السابقة من لوزان تذكارا لأيامى فى سويسرا .

وليست حوادث نسيان المتاع بالشىء الخطير إذا ما قيست بحوادث نسيان النقود . وأى خطر أعظم من أن تكتشف وأنت على سفر طويل انك خالى الوفاض بادى الانفاض ؟ ، ولعل يومى الأول فى أوربا — وذلك منذ عشر سنين — يتميز بحادث طريف من هذه الحوادث المفجعة التى يجرها النسيان .

هبطنا مرسيليا مع جمع من الأصدقاء المصريين ونحن فى طريقنا إلى انجلترا للدراسة حينذاك ، فقضينا اليوم فى مرح وفرح

ونحن نجوس خلال المدينة ونتنقل بين مقاهيها ومطاعمها ومتاجرها ، حتى إذا كان المساء حملنا حقائبنا واحتللنا غرفة كاملة فى القطار إلى باريس ، وأعددنا أنفسنا للطعام والنوم وكان موعد القطار السابعة وجاء هذا الموعد والقطار فى مكانه ، نخرج بعضنا ليستطلع جلية الأمر وما كان أشـد دهشه حين علم أن القطار قد سافر فعلا ، وترك العربة التى كنا فيها ؟ وما هذا بغريب فى فرنسا . . .

فحملنا حقائبنا من جديد إلى رصيف المحطة فى انتظار القطار الذى يليه ، وفى تلك الساعة طرأ على ما جعلنى أبحث عن شىء فى جيوبى وما أعظم مفاجأتى عندما وجدت أن حافظة نقودى وأوراقى فى غـير مكانها ، فأعدت التفتيش والبحث فى جيوب السـترة والمعطف والحقائب دون جدوى ـ حينذاك تحققت أن المأساة لا شك فيها فاستحال الفزع إلى نوبة عصبية ، لاسيما أن ذلك اليوم كان أول ماعرفت من الحياة الأوربية ، فرحت كالمجنون أثب هنا وهناك باحثاً دون غاية أو قصد بين أركان المحطة الـكبيرة ، حتى إذا ماأحسست باليأس جلست على بعض



يوم فى أوربا

صناديق البضاعة المخزونة فى ركن مظلم من المحطة ، وما أعظم دهشتى عند ما تلفت لأجد على أحد الصناديق المجاورة حافظتى ملقاة ومفتوحة ، وبها بضع عشرات من الجنيهات دون أن يفطن إليها أحد . فقد نسيت أننى قد أخرجتها منذ ساعة لأكتب عليها ورقه لعامل من عمال شركة السياحة وتركتها فى نوبة من السرعة ، فبقيت فى مكانها هـــذا ساعة دون أن يفطن لوجودها أحد .

وفى هذا الصيف وبعد عشر سنين تتكرر المأساة وفى هذا القطار نفسه من مرسيليا وأنا فى الطريق إلى براين . كان برفقتى الصديق العزيز السيد ع . . . . وما هبطنا مرسيليا حتى أصر على البقاء فيها ليلة ليستعيد ذكريات قديمة له فى هذه المدينة ، أما أنا فكان كرهى للبقاء فى مرسيليا أو غيرها من البلاد الفرنسية أمرا لا شك فيه . فكان أن نجحت فى إقناعه ولكننا لم نكد نترك مرسيليا ، حتى عاد إلى احتجاجه وأصر على البقاء يوما فى أية مدينة فرنسية فى طريقه قبل أن نصل إلى ألمانيا . فلما أصبحنا اتفقنا على أن نفترق ، على أن يتخلف فى استراسبورج

وأن أتخلف فى هايدلبرج الألمانية ، وعلى أن يلحق بى فى هذه المدينة فى المساء .

ولم أكد أصل الحدود الألمانية حتى تنفست الصعداء وكان أكبر همى أن أتناول طعام الفطور الألمانى المعروف فى عربة الطعام ، لاسيما أننى قضيت ليلة كاملة دون أن أتذوق شيئاً ، وقد كان من جراء محاولة الأمس مع السيد ع . . . أن أصررت على ألا أشاركه حتى فى طعامه الفرنسى ..

وكان الصباح بهيجاً على ضفاف الراين وقد شاركتنى فى غرفتى عائلة ألمانية من الفتيان والفتيات الوسيمات ، وكنت مزهوا فرحا بعد رحلة طويلة مضنية ، فأخرجت بعض ما أحمل من الكتب الانجليزية والألمانية وأخذت أقلب صفحاتها وأقلب النظر تيها وعجبا بين وجوه الفتيات الجالسات ، وأنا أدخن غليونى دون انقطاع حتى زاد ذلك فى إجهادى وشعرت بالجوع حقيقة .

فأرسلت أصابعى إلى جيوبى لأستمتع باستعراض ما أحمله من دفتر الشيكات الألمانية . فكانت المأساة أيضاً ! ولكننى لم أصدق فى بادىء الأمر وقوعها ولكنها كانت فى كل دقيقة

تستحيل من الظن إلى اليقين ومن الشك إلى التوكيد وماأسرع أن جف ريقى من هول الفاجعة المفاجئة ، وانطفأ الغليون مشاركة لى فى المصيبة النازلة وأقفلت كتبى واستحالت نظراتى الرومانتيكية إلى نظرات مترددة خاطفة واستحالت نضارة الوجوه التى كنت مزهوا بالنظر إليهـــا إلى شىء تافه لا يثير إعجابا ولا يستثير عاطفة .

وكان البحث فى الحقيبة الصغيرة على غير جدوى ، ثم أسرعت إلى الحقيبة الكبيرة وحملتها إلى ممر العربة وقد ازدحم بالواقفين والمتنقلين وفتحتها تحت عيونهم دون أن آبه للاحظاتهم أو نظراتهم ، ونثرت ما فيها وأنا أرتعش من الغيظ . وكان البحث جزافا ؛ فلم أجد بداً من أن أخطر ناظر المحطة بالفاجعة مؤكدا له أن الحافظة المفقودة قد خلفتها فى استراسبورج . وبعد أن تركت له عنوانى فى برلين رجعت إلى القطار وأنا خائر القوى من التعب والجوع والمفاجأة ، إذ لم يكن هنالك بد من أن أقضى هذا اليوم كاملا إلى المساء دون طعام حتى يصل صديقى ع .... إلى هايدلبرج . ولعل اليأس المطبق فى بعض الأحيان يولد نوعا

من الأمل إذ أنني بعد أن سار القطار رجعت إلى حقائبي لأعيد فحصها أو لأتسلى بتفتيشها على الأصح قطعا للوقت إذ لم تكن لدى رغبة في الجلوس أو القراءة أو التدخين أو الاستمتاع بشيء من مباهج السفر — وكما أن المصيبة قد وقعت فجأة فقد هبط الفرج فجأة كذلك ، إذ وجدت هذا الدفتر المفقود في جيب من جيوب السروال الذي كنت قد بدلته في الليلة الماضية ! !

عند ذلك أحسست بأن مباهج الدنيا كلها قد تفتحت من جديد ، وأحسست بأن الحياة بأحلامها وعواطفها ترقص أمام عيني وأن لا حاجة لي في طعام أو شراب .

عودة الى الرفقاء

كان رفيقنا النمسوى رسول سلام بيني وبين الصديقة الايطالية إذ خلق جوا مقبولا بأحاديثه وملاحظاته ورعايته للطفلة الصغيرة ، حتى ان هذه السيدة عند مااخترقنا الحدود اليوغوسلافية تفضلت ودفعت لي خمسة وعشرين دينارا على أن تستردها عندما نصل الى تريستا ـ ولكن طبيعتها الثائرة وروح العداء الطبيعي بيني وبينها جعلاها لاتهدأ ولا تستقر حتى تسترد مادفعته . ولعلها أحست بأن هذا الجميل في غير موضعه ، إذ أننا لم نكد نصل الحدود

الايطالية عند قرية صغيرة حتى أرادت منى أن أترك القطار لأستبدل نقودى الانجليزية بعملة إيطالية حتى أدفع حقها، وكان هذا الجزع البادى على وجهها وهى تدفعنى الى هـذه المخاطرة وازعا الى على التمنع والاستنكار مما زادها غيظا وحنقا، حتى إذا ماوجدت أن كل محاولة فى هذا الشأن ميئوس منها أسقط في يدها وراحت تفرج عن نفسها بترديد قصتها القديمة عن رحلتها في ألمانيا .

ولقد سمعنا هذه الحكاية المرة بعد المرة حتى أصبحت سقيمة ثقيلة على السمع فقد كانت تشكو من كل شيء - من صعوبة السفر، ومن طول الطريق إلى مصر، ومن ذلك الاضطراب في تغيير العملة أو إخراجها من ألمانيا وهي قصة الليلة السابقة، ثم راحت تشتكى أيضا من نظام الباخرة الايطالية التى أصرت على أن تدفع ثمن تذكرة لطفلتها الصغيرة وهى لاتتجاوز خمس سنين

وكان الرفيق النمسوى على النقيض من هذا مزهوا بكل شيء ألمانى إذ لم نكد نفارق البلاد النمسوية حتى أخرج من بعض جيوبه الخلفية صورة للزعيم الألمانى (أدولف هتلر) وراح ينظر اليها في إعجاب

وقد حرم عليه القانون أن يحمل مثل هذه الصورة فى بلاده ، وأخذ يتنقل بنا الحديث من شأن إلى شأن حتى انتهى بنا إلى الكلام عن الحروب الأسبانية وفظائعها وفجائعها التى كانت تملأ الصحف الأوربية إذ ذاك ، ثم انتقل الحديث من ذلك بطبيعة الأمر إلى عظمة إيطاليا الحديثة ونهضتها ، وأخذت تقص الحكاية بعد الحكاية عن أسرار هذه العظمة وهذا النهوض ، وكنت إلى هذه الساعة لم أكن أعرف خبيئتها إذ كنت أرد على القصة بالقصة والأمثولة بالأمثولة .

حرب كلامية

ولشدما آثار غيظى عندما بدأت تقص على تجاربها عن الأمانة الأيطالية لاسيما فى مدينة نابلى التى نعرف ولاشك مالها من شهرة عالمية فى عالم النصب والتحايل ، فذكرت كيف أنها قد افتقدت يوما مبلغا من المال فى عربة من العربات ، وما كادت تكتشف أمر ذلك حتى وجدت سائق العربة يبحث عنها ليرد لها هذا المال ؟ ! لقد كانت هذه الحكايات والمثل أقرب إلى الخرافة منها بحديث يتقبله العقل أو المنطق ، إذ ما من رائد هبط تلك المدينة

إلا ويقص عليك أكثر من حكاية على النقيض من ذلك.

أما أنا فقد أجمعت الرأى على مناقضتها وهدم إعجابها بنفسها إذ ذكرت لها مارأيت مرة فى نابلى وقد هبطت المدينة فى الصباح الباكر، فاسترعت نظرى جماعة من الأطفال يتآمرون فى ركن من الشارع بجوار بائع جوال من باعة الفاكهة . فذهب واحد منهم وأسر الى البائع بشىء حتى إذا تلفت إليه أسرع الآخر وخطف عنقودا كبيرا من العنب وجرى به وتبعه الآخرون ...

ولم أتورع من ان أخطو فى النكاية بها خطوة أجرأ من ذلك ، إذ ذكرت لها حكاية لى فى تريستا منذ سبع سنين وقد وصلت إليها فى الليل من باريس بعد أن أرسلت حقايبي الكبيرة فى عربة البضاعة . ودفعت أجر ذلك فى العاصمة الفرنسية حتى إذا ما أردت استردادها طلب منى العامل الانتظار حتى خلا بهو المحطة من المسافرين ولم يبق أحد فى الغرفة غير جمع من الحمالين ، عند ذلك طلب العامل سبعين ليرة إيطالية أجراً لتسليم الحقائب فأفهمته بالانجليزية أنى قد دفعت هذا الأجر وأريته البطاقة الخاصة بذلك ، فتمنع الرجل وتعنت ورفض إلا أن يقبض هذا الأجر دفعته

أم لم أدفعه ، ولما رأى تشبثى تداخل الحمالون معنا فى الحديث ليقنعونى تارة وليرهبونى أخرى ، حتى علا الضجيج وهم لا يفهمون انجليزيتى وأنا لا أفهم رطانتهم الايطالية ، غير أنى كنت موقناً بخبيئة أمرهم فاستحالت الأوامر إلى مساومة فى الدفع ، وأخذ المبلغ المفروض يتناقص حتى استحالت السبعون ليرة إلى سبع فقط دفعتها وأنا كاره حسماً للنزاع وما يجره النزاع فى تلك المحطة المقفرة ..

كان كل ذلك ولا شك عاملا على إذكاء روح العداء بينى و بين هذه السيدة لاسيما بعد أن اكتشفت جنسيتها ونحن على حدود بلادها فاضطررت إلى أن أتراجع بعض الشيء فى هذا الغلو وهذه النكاية . بيد أنى كنت أدعو الله فى سرى أن يهيء لى من الظروف المؤاتية ما يجعل النصر إلى جانبى ..

فما وصلنا الحدود الايطالية حتى وجدت أن أساريرها قد تفتحت وأن زهوها بنفسها قد أصبح لا يطاق ، وما كدنا نقف عند أول قرية إيطالية حتى فتحت النافذة وأخذت تقلب النظر باعجاب بكل شيء لاسيما بعمال المحطة و برجال البوليس والجمرك وكانت تحاول أن تستلفت نظرى إلى هيئتهم و الى إناقة ملابسهم . وأنا أتجاهل هذا الايماء بل كنت أعمل على النقيض من ذلك

فكنت أدمن النظر إلى وجوه بعضهم وقد تركت دون حلاقة فبدت منابت شعرها الأسود قبيحة . .

ثم توالت المحطات حتى وصلنا تريستا . وقدجرت العادة فى مثل هـذه المحطة إذا ماوصل القطار أن يهجم عليه سرب من الشيالين ويعلو الضجيج وتتطاير الأوامر والنداءات ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فقد وصل القطار دون أن يستقبله أحد .

واختفاء وجوه الشيالين نوع من الترحيب الصامت بالقادمين ! لأن الغريب الذى لايكاد يستقر به القطار يصادفه جيش زاحف من الحمالين بوجوههم المغبرة وذقونهم التى لاتعرف الموسى و بعيونهم الزائغة الخاطفة ، هذا الغريب يحس بالفزع يرسب فى صميم قلبه

و بعض هؤلاء الشيالين مثال كامل من أمثلة السماجة والقحة ، فهو لايتبرع فقط بالاقدام على حقائبك دون أن تدعوه بل إنه لايتورع من أن يسيرك و يوجهك حيث يريد ، فاذا تركت له القياد أجرى بالنيابة عنك سلسلة محبوكة من الاتفاقات ما بين شيال وسائق عربة وسيارة ومندوب شركة للسياحة وترجمان ومندوب فندق من فنادق المدينة . . .

وتراه يتظاهر أمامك بالانهماك الشديد حتى لايكاد يسمع لك رغبة أو يصغى لرأى تبديه ، وكأنما هو صاحب مهمة جسيمة وواجب حرى أن ينصرف إليه دون سواه . وقد يترك الغريب المسكين لسبب من الأسباب هذا المتطفل الذى لايتورع من أن يصدر إليه أمراً بمنح هذا كذا من القرنكات وذاك كذا من الليرات ، وهو فى ذلك لايقبل مناقضة ولاينتظر منك رداً !

حتى إذا انتهى من ذلك وأسلمك إلى سيارة على باب المحطة فى صحبة تابع من توابع الفنادق ، وقف ينتظر منك أن تكيل له أجرة هذه الادارة التى اضطلع بها ، ومهما كنت كريما فى تقديرك فهذا التقدير لن يبلغ الكم الذى يريده منك !

كان من الغريب حقا أن تجد محطة تريستا فى تلك الساعة خلوا من وجوه هؤلاء الشيالين . . ولكن هذا الخلو لم يكن إلا لسبب مجهول من الأسباب إذ أننا لم ننتظر قليلا حتى بدأ زحف هذه الفرقة وهى مجهزة بالأحزمة الجلدية والحبال وعربات اليد .

وكان علىّ أن أنضم إلى جماعة من الجماعات لنحمل حقائبنا فى عربة واحدة من عربات النقل إلى الميناء ، لأن هؤلاء الشيالين

يجمعون ما على الرصيف من حقائب يكومونها عشرات بعضها فوق بعض حتى يصبح من العسير أن تكشف عن حقيبتك فى مثل هذا التل من الحقائب الجلدية المتشابهة .

ووجدت هذه الجماعة فى عائلة ألمانية مسافرة معنا إلى الشرق أكثرها من السيدات ، فجعلت نفسى ناصحاً لها وحارسا عليها ومندوبا بينها و بين رجال المحطة وكلهم يعرفون الألمانية ؛ إذ أن تريستا منفذ لأهل ألمانيا النازحين إلى بلاد البحر الأبيض وإلى بلاد الشرق الأدنى ؛ وهى مازالت تحتفظ بتراثها الألمانى منذ ان كانت مدينة نمسوية منذ نيف وعشرين سنة ؛ ولو أن مجهودا جباراً يبذل فى سبيل هدم هذا التراث .

فعل التاريخ

وفى رودس رأينا كذلك كيف تمثل هذه الرواية بعينها ، وكيف يقضون على كل تراث تركى اللهم إلا الذى تحميه الطبيعة ، فالكتابة العربية لم تبق الا آثارها منقوشة على أحجار المقابر أو حيطان القلعة القديمة ، والحى التركى القديم بدروبه الضيقة سائر إلى الزوال وقد حرم من كل معانى الحياة ، ولكنه مع ذلك يبهر الزائر ويوحى إليه بأمتع الذكريات و إن كانت مصطبغة

بكثير من الحسرة التى يولدها العفاء والفناء ، إذ أن رودس الايطالية الحديثة بمبانيها وعمائرها ومتاجرها ومقاهيها ومسابحها لا تفعل شيئا من هذا ، إنها تبدو كالغنى المحدث فى ثراه لم تخلد فضله بعد يد الزمن ، ولم يصبغها التاريخ بروائه وعظمته .

الدين

كان تسديد ذلك الدين من الدنانير اليوغسلافية آخر ما كان يربطني برفيقتى الايطالية ، وكانت حريصة جد الحرص على استرجاع مالها ، ولم أكن أقل منها حرصاً على رد هذا الحق لأتحلل من هذه الصحبة التى لم أكن راغباً فيها .

فما وضعت حقيبتى الكبيرة بين عشرات الحقائب التى حزمت إلى الميناء حتى كانت إلى جانبى تستحثنى على تغيير مامعى من ماركات ألمانية إلى نقد إيطالى . ومن عجيب الأقدار أن كان ذلك اليوم فاصلا بين نظام ونظام فى أثمان الليرة الايطالية التى هبطت هبوطا جسيما فى الليلة السابقة ، حتى أن الحكومة أقفلت البنوك خوفا مما يحدث فى مثل هذه الأزمات من اضطراب . وكان علينا أن نستبدل نقودنا الأجنبية بالقيمة

القديمة ، ومع ذلك لم أبتئس لأن جماع ثروتى كما عرف القارىء لم تعد فى ذلك اليوم عشرة شلنات . .

ثم إننى دفعت إلى مدينتى ست ليرات قيمة مااستعرته منها بيد أنها كانت ولاشك تطمع فى أكثر من هذا القدر بكثير ، لأنها ما كادت تتسلم هذه الليرات حتى ثارت وماجت واحتجت بكل لسان وراحت تعنفنى بقسوة على هذا النكران وهذا الاستغلال القبيح من جانبى ، وما كان لها أن تستمع إلى شرح أو تفسير عن قيم النقد ونسب العملة الأجنبية ، لأنها لم تكن تنشد حقا معينا بل جزاء ومكافأة ؟

ثم إنها أعرضت عنى استهتارا وغيظا وقدمت إلى عامل الخزينة بعض مامعها من نقود نمسوية ويوغسلافية لاستبدالها ، فهز الرجل رأسه ورفض أن يستبدل هذا النقد ولم يرض إلا أن يأخذ نقداً إنجليزيا ، فراحت توضح له وتستوضحه ، وتفسر له وتستفسره بكلام طويل عريض ، ولم يزد الرجل على هز رأسه وبقى مصراً على الرفض .

واستحالت المناقشة إلى جدال عنيف جمع حولنا لفيفا من

النظارة ، فتركت أمر حقائبي ووقفت لأنظر كيف ينتهى هذا الصراع فقد تحققت فرصتى التى كنت أرقبها من الليلة الفائتة . ولعلها شعرت بابتسامتى التهكمية وما كان يبدو علىّ من غبطة لهذه النتيجة ، فعز عليها أن تمتهن هذا الامتهان وهى فى بلدها الذى كانت تفخر به أمامنا حتى مججنا حديثها ، إذ أنها أسرعت إلى اثنين من ذوى القمصان السود الذين لا تخلو منهم محطة إيطالية وراحت تستنجدهم وتطالب معونتهم ، ولم يكن حظها مع معينيها موفورا كذلك ، إذ أن الرجلين رفضا الانتقال أو الاصاخة إلى رغبتها فلم تجد بدا من الرجوع خائبة غاضبة .

ثم إنها رجعت إلى حيث الشياالين وأنا أتبعها مغتبطا لأرى مايكون من أمرها ، فطلبت من حمالها نمرته إذ لم يكن يعلق إشارة مميزة على صدره كما جرت العادة ، فرفض الرجل ذلك وأصر على الرفض ، وخيرها بين حمل حقائبها دون إجابة و بين رفض حملها فلم تحتمل هذا التحدى الجديد فأشاحت بوجهها ونظرت إليه وهى تسب الرجل بالفرنسية بأقذع الألفاظ .

لقد كانت تلك فرصة عظيمة حقا . . .

إننا لاندرى كيف يجمع السفر ويقرب ما بين الغرباء . . الغرباء الذين قد نحكم عليهم بالسخف أو نقابلهم بالاستخفاف ولكننا سرعان ما نكتشف مبلغ هذا الخطأ فى الحكم ، سرعان ما نكتشف أن صاحب هذا الوجه العبوس يحمل قلبا ضاحكا وصدراً مفتوحا .

عند ما وصلت الى بوخارست منذ بضع سنين صحبنى فى القطار رجل ماظننت فيه الخير أو العطف فجافيته وقاطعته إلا حيث قضت الضرورة اللازمة . فلما وصلنا المدينة كان علىّ أن أترك حقائبى لأتعرف أسرار هذه المدينة الجديدة جريا على عادتى فى السفر ، وكان علىّ أن أدفع أجر ذلك بالنقد الرومانى ولم يكن معى منه قليل أو كثير ، ولما كان الوقت ظهراً كان من المحال أن أبدل بعض ما معى من عملة أجنبية إذ البنوك مغلقة ، وأبى العامل إلا تعنتا ، فما كان من ذلك الرفيق المجهول إلا أن تقدم ودفع ثمانى ليات أجر هذه الحقائب ، وأبى أن يأخذ قيمتها أو ان يرتبط معى بوعد لردها ، بل دفعها باسما شاكراً متمنياً لى إقامة سعيدة وتركنى حائراً مفكراً .

وبعد ذلك بأربع سنين كنت في الطريق من لندن إلى

بروكسل وكان معى فى العربة شاب أنيق جد الإناقة من الذين يعنون بحمل ساعة ذهبية وخاتم من الماس فى الخنصر ، فوثقت انه من طلاب المدارس العامة مدارس الطبقة الارستقراطية الانجليزية التى ترسل أبناءها إلى أورو بالدراسة اللغات وللرياضة ، مما لايعنى به الا الانجليزى الارستقراطى . ولكن هذا الافراط فى التأنق لم يعجبنى من هذا الشاب ، فلما وصلنا دوفر أقامت بنا الباخرة بعد منتصف الليل واختفى عن وجهى هذا الشاب حتى وصلنا بروكسل فى ضحى اليوم الثانى .

مررت به فى بهو المحطة وقد هدأ بعض نزقه وكانت تبدو عليه بعض علامات الحيرة والاضطراب ، فلما حاذيته أبدى رغبة فى التحية فتبادلناها ثم راح يسألنى عن القطار المسافر إلى سويسرا عن طريق بازل ، ثم تدرج بنا الحديث إلى أن عرفت أن هذا القطار قد فاته ولم يبق إلا قطار الليل ، كما عرفت أنه سويسرى الأصل من عائلة كريمة وهو فى طريقه إلى وطنه بعد رحلته فى انجلترا ، ثم عرفت أن مابقى معه من نقود قد استنفدها فى ليلته السالفة بين أصحاب وصاحبات .

وكان ولاشك صادقا فى كل قوله ، وكان علىّ ولاشك أن

أ كون إلى جانبه فدفعت له أجر الحقائب ودعوته إلى طعام الإفطار فى المدينة كما جلت و إياه فى شوارعها فلما ودعته أكدت عليه بقبول بضع فرنكات كان ولاريب فى حاجة اليها ولم أرد أن أترك لديه اسماأوعنوانا حتى لاأثقل عليه بالردأو الشكر ، وكنت أتمثل أثناءهذا ذلك المجهول الذى أقال عثرتى فى بوخارست وشعرت بأنى قد أديت دينه فأحسست براحة وسعادة . . .

أمام المصرف

ومالى أن أنفرد بذكر بوخارست وأنسى ليلة نابغية فى بروكسل نفسها منذ بضع سنين قضيتها مع صديق بجيوب خالية.

حدث كما يجرى فى كل مكان وزمان أن رحل طالبان إلى مصيف من المصايف الأنيقة المعروفة ، وكان هذا المصيف أوستند على الشاطىء البلجيكى ، وفى هذه المصايف الأنيقة ينسى الشاب نفسه ويتولد نوع من الثقة بين الرفيق ورفيقه ، فاذا تورط الواحد منهما وثق بأن صديقه لاشك سيقيل عثرته و يرفعه من كبوته .

وعلى هذا الأساس أخذ كل من الرفيقين ينفق مافى

الجيب وهو واثق جد الثقة بأن صديقه سوف يكون إلى جانبه إذا أهاب به :

وفى مرقص « الطاحونة الحمراء » جلس الرفيقان وكل منهما يجاهد نفسه لسؤال رفيقه ، فماأن بدأصديقى بالسؤال حتى أغرقت فى الضحك فلم يتمالك نفسه عن مشاركتى فى هـذه الموجة المرحة المفاجئة دون أن يعرف جلية الأمر ، ذلك لأننى كنت أفضى جيبا من هذا الرفيق السائل ؛ ولاشك أن المفاجأة كانت قاسية ولـكنها لم تثر الا الضحك والمرح ، ولم نفعل إلا أن تركنا هذا المرقص وأخذ كل منا يحصى مابقى معه من دراهم وسحاتيت . .

وفى الصباح خرجنا إلى بعض البنوك الانجليزية ورغبت فى مقابلة مديره فعرضت عليه أن يرسل فى طلب مبلغ من المال من بنك أعامله فى لندن وأن يطلب ذلك برسالة برقية لأن حاجتى ماسة ،

إننى لن أنسى هذا الشاب الانجليزى الأنيق الرقيق ، لقد كان مثالا للانجليزى « الجنتلمان » لقد حيانى بكل عطف ، حتى أنه أخرج من جيبه الخاص مبلغا من المال وطلب منى أن أقبل ذلك سلفة صديق إلى صديق حتى تصل نقودى من لندن . . . ولـكننى رفضت شاكراً مع شدة الحاجة .

ولا أذكر كيف تحايلنا على قضاء ذلك اليوم فى بركسل دون فرنك كامل فى جيب كل منا ، إلا أن ماأذكره هو أن صديقى قد وجدته فى المساء يزحف على بطنه تحت سريره باحثا منقبا عن عشرة سنتيمات كانت قد تدحرجت منه فى أيام عزه ، وأذكر أننا فى اليوم الثانى قد استيقظنا فى الصباح الباكر قبل أن تفتح البنوك بساعتين وكان اليوم ممطراً وباردا فأخذنا نتجول فى حدائق القصر الملكى ونحاول الاستمتاع بجمالها ببطوننا الخاوية وملابسنا المبللة ، فلما لم نعد نطيق البرد والمطر اكتشفنا متحفا مجاوراً من متاحف الصور المجانية فقضينا فيه ساعة.

حتى إذا دقت العاشرة كنا أول من ولج باب البنك الزجاجى وكان ظرف ذلك المدير الشاب فوق كل وصف ، فلم نجد إلا صدرا مفتوحا ومساعدة ماأشد حاجتنا اليها :

هواة الأرقام

نعم ما أخسر قيمة الأعداد والأرقام فى السفر ، فاذا قيل « إن الأرقام تتكلم » فلا شك أنها تتكلم كلاما لا يتصل بحقيقة أو واقع ، فكم من مسافر قد مضى أياماً يحسب ويدون ويفاضل ويقارن حتى إذا انتهى ظن أن هذه العمليات التى فى مذكرته

قد تسيطرت على جيوبه حتى أصبح من العسير أن يخرج قرشاً واحداً مالم يكن له بند معين بين هذه الأرقام :

ولكن الحقيقة غير هذا ، الحقيقة التى يعرفها كل مسافر مجرب أن القضاء والقدر يلعبان دورهما فى شئون المسافرين ، فقد تهبط على حساب المسافر الرحمة كما قد تكتسح هذه الأرقام موجة جارفة أو نزوة تأتى على كل ما فى الجيوب ، والمسافر أمامها عاجز عن أن يدفع عن نفسه خطر هذا البلاء !

أعرف أنواعا من المسافرين قد انقلب فيهم هذا الميل إلى الأرقام وإجراء العمليات الحسابية لوثة وضربا من الجنون ، فالواحد منهم يقضى أياما طويلة قبل سفره وهو يعد كشوفا بما يطلب وبما يحتاج اليه ، ثم تراه يدور على مكاتب السياحة يحمل الأدلة والخرائط وصور السفن وأثمان التذاكر حتى تتجمع لديه كمية وفيرة منها . واذا انتهى من ذلك راح يدرس هذه الوثائق ويدون المسافات والأبعاد والأثمان والمواعيد فى مذكرته الخاصة ؛ وإذا انتهى من كل هذا واجه المشكلة العسيرة وهى شئون المال ، فيعنى وقتئذ بما ينشر فى الصحف عن أثمان العملة الأجنبية ، وقد لا تراه يأمن للصحف اذ أن الأخطاء المطبعية أشد خطرا فى الأعداد

منها فى الحروف — فيدور حول المصارف يسأل و يقارن و يفاضل .

و إذا جاز هذه المرحلة بسلام وقدر بصفة جازمة مايكون فى حاجة اليه من مال فى رحلته ، يحدث عادة أن يصطدم منذ اللحظة الأولى بالحقيقة الجامدة فتنهدم أعمدة الأرقام التى بناها فى أيام طويلة .

فتستحيل هذه اللوثة باجراء العمليات الحسابية إلى ضرب من الخبل . فترى هذا المسافر يقضى وقته على ظهر الباخرة أو فى القطار يراجع ويصحح أرقامه وقد يعد مافى جيبه مرة بعد مرة ليستوثق أن الأرقام لاتغشه ، وهو فى كل خطوة يسير من خطأ إلى خطأ حتى يشعر بأن مايدونه كل ساعة على هوامش الصحف والمظاريف ليس إلا لهوا بريئاً وليس بحقيقة واقعة .

الى البحر

أما اليوم فكان من أيام الشتاء العابسة ، محجوبة شمسه ، هاطلة سماؤه ، وكانت الريح تدوى فى الفضاء وكأنها تردد دفعات الأمواج المزبدة الصاخبة فتبعث فى نفس المسافر شعورا مقبضاً ، حتى أن مياه المطر لم تصل إلى الأرض إلا رذاذاوقدفرقتها الريح العاصفة ، وكان السير على رصيف الميناء الجرداء جهادا مع الريح

والمطر والبرد ، وكانت الباخرة ترسل دخانا أبيض ضعيفا ولاتكاد ترى مستقبلا أو مودعا ، لقد كانت تبدو من بعيد كأنها الحمامة العجوز وقد جثمت فى فجوة حائط حذرا من البرد والمطر .

أى شعور يتملك النفس عندما يرى الغريب أن لاشىء يحجبه عن وطنه الا هذه الأميال من المياه الزرقاء ؟ وليس عجيبا أن تجد من يقف محملقا الى الأفق البعيد بعين ساهمة ونفس مضطربة كأنه ينظر الى أرض الوطن وهو يعرف أن أميالا طويلة لاتصل إلى نهايتها عينه المجردة هى التى تفصله عن وطنه . . .

لقد كانت قاعة الجمرك عظيمة ، لقد كانت جدرانها زاهية بديعة وكان جميع مافيها حديثا مبتكرا ، نعم إنها أدت رسالتها فجعلت هؤلاء الأجانب يفحصون أركانها بدهشة واعجاب ، ورحنا نضرب فى أرجائها الواسعة الفارغة ولانسمع إلا صدى أقدامنا .

وجلست كل جماعة منا فى ركن من أركان المكان ننتظر حقائبنا ، وقد كان انتظارا طويلا ، حتى إذا سمعنا دويا فى الطريق أسرع بعضنا ونظر من زجاج النافذة ثم عاد يهز رأسه سلبا ويفرك يديه . . .

وفى « بار » أنيق وقف ضابط إيطالى يتحدث همسا إلى خادمة المشرب وقد اتكأ على المنضدة العالية وأخذ يرشف بخفة واستمتاع من كأسه الصغير الملون ، إذ أن خلو المكان و إبداع تنسيقه يولد مثل هذه الرغبة إلى التسارر فى الحديث والاسترسال فى الوقوف .

وعلى باب هذه الغرفة الزجاجى جلست راهبتان بملابسهما الكثيفة تتحدثان فى خفية، وتسترقان النظر إلى الضابط وصديقته الخادمة ، فاذا ضحكا غبطة وفرحا نظرت كل راهبة إلى أختها نظرة صامتة وقطعتا حبل الحديث وأخفت وجهها فى أكمامها الواسعة ؛ ومن يدرى ما يجول من خواطر أو ذكريات أو آمال فى هذه النفوس التى قطعت على نفسها عهدا أن تهجر الحياة وهى ما فتئت صاخبة متفجرة حولها .

ثم إننى جلست إلى جانب الباب استقبل وفود المسافرين . أقارن بين الوجوه وأفرق بين الأزياء وأرد كل وجه إلى وطنه .

ثم دوت فرقعة رجت لها هذه القاعة الواسعة وتجاوبهامئات من ألواح الزجاج ، ثم تبعت هذه الفرقعة رنات عشرات من الأجراس تدق اثنتى عشرة دقة بكل صوت ونغمة :

لقد انتصف النهار .

ولقد انتهى اليوم ..

يوم فى أوربا ..

ثم نظرت إلى ساعتى ودفعت عقربها البطىء خمس دقائق .


Bibliotheca Alexandrina
0415829